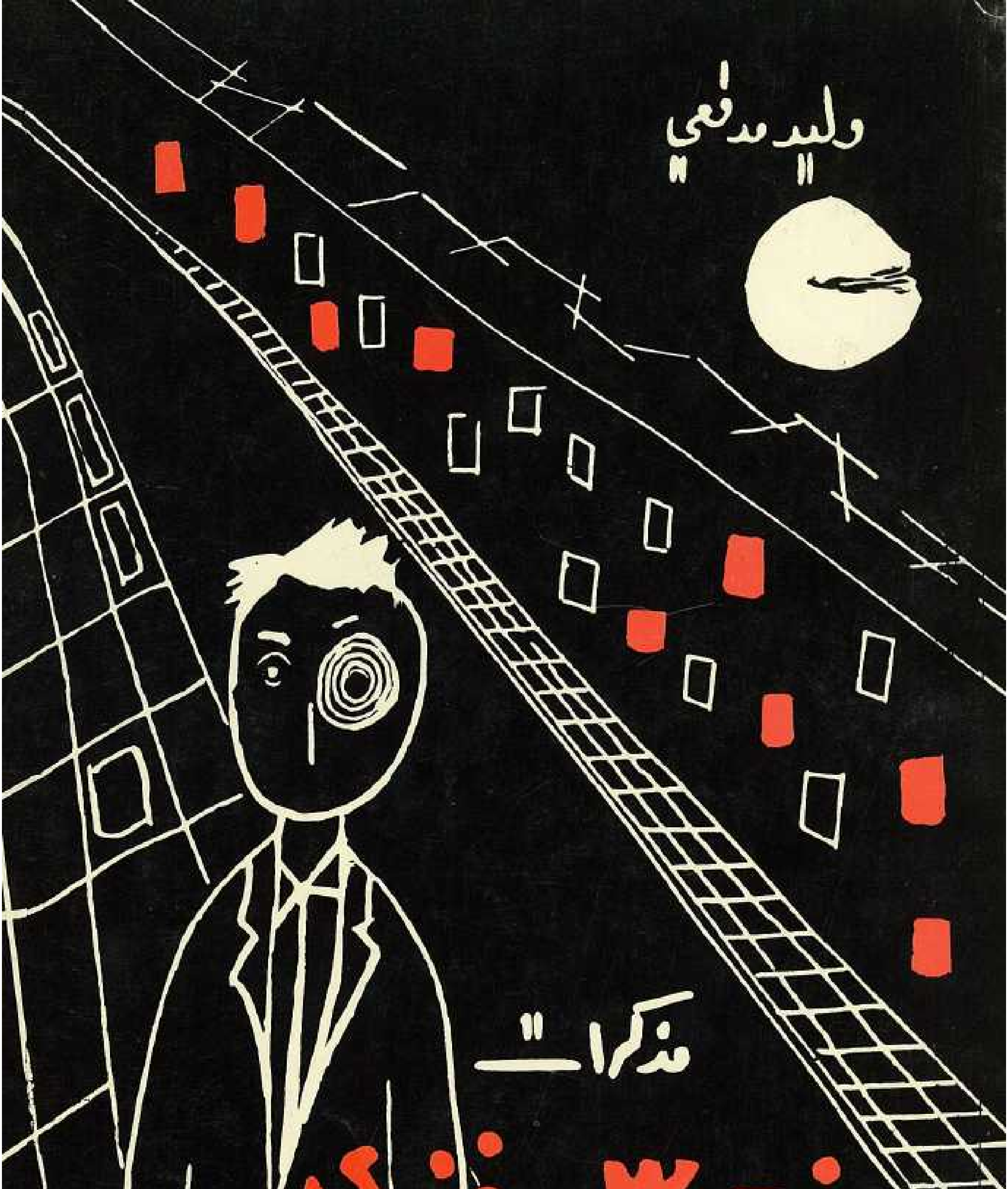
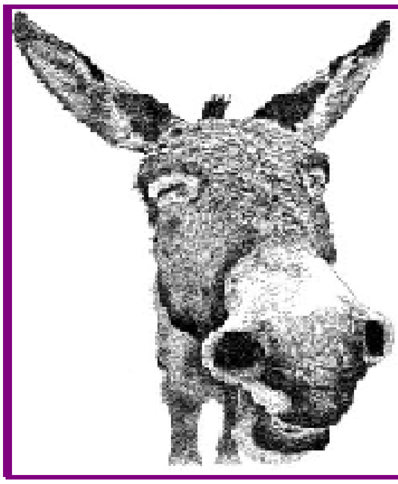

وليد مدفعي
مذكرات
منحوس افندي

http://abuabdoalbagl.blogspot.com



أبو عبدو البغل

مذكرات منحوس أفندي

مذكرات منحوس أفندي

مسجل برقم ٢١٦ تاريخ ١٤ / ٥ / ٩٩٢

الطبعة الثانية

تصميم الغلاف: الفنان التشكيلي

المرحوم عبد القادر الأرناؤوط

كافة الحواشي السفلية بقلم المؤلف

الناشر دار عواد

الإهداء

أسير أحياناً في الطرقات، وعندي رغبة ملحَّة في أن أضمَّ إنساناً أو " إنسانة " إلى صدري، لكني لا أفعل خشية أن أتهم بالجنون أو بمخالفة القانون.

هذا الكتاب .. أهديه:

للذين ضممتهم إلى صدري بمحبة أو بحب، دون أن أُصفع على وجهي، أو أقف أمام قاض، أو أُرسل إلى مستشفى المجانين.

" منحوس "

عن دمشق في ٥ - ٧ - ١٩٦٠

الأخ وليد

أمس، انتقلت من مبنى العمل، وبالأحرى بقوة، إلى بناء آخر من أبنية الإذاعة ليسوده بعض هدوء.

وأمسكت ذكرياتك .. وأمسكتني.

وكانت فيما مضى تسليني لذلك ذكريات دوحاصيل وطلة سوليفان ..

سنوات عديدة لم أشعر نفسي فيها كإنسان له الحق في أن يتصرف كمفكر لا كآلة تعمل بوحي خارجي. واليوم أتوجه في هذه الأسطر من واقع عقمي الفكري الحالي إلى بارقة الماضي الحبيب عندما كنت أمسك القلم بأصابعي، وأشتات الفكر بيدي.

وما استفقت إلا عند نقطة الدم التي تسربت من فم إنسانك إنساننا، ولكن هذه النقطة اندفعت حارة في عروقي.

إنها حقاً سطرت بالأمس ذكرياتي. ذكريات المعلم الفاشل في قرية.. ونشرتها على الناس ليسهموا معي في معرفة واقعي الضائع.

إنني هنا قد عتبت عليك، أنك قد هيجت في أعماقي المارد المخيف الذي حبسته طويلاً في محتم ذاتي.

ولكنك إنسان. وأديب. وأنا إنسان وأديب فاشل.

ففي ذلك عزاء!..

أخوك

محمد الراجح

مقدمة الطبعة الثانية.

لم أجد كمقدمة لهذه الطبعة أفضل من نشر رسالة صديق عزيز وأستاذ كبير هو الأستاذ يحيى الشهابي، كان قد كتبها بعد فراغه من قراءة الكتاب، وقد امتنعت آنذاك عن نشر مضمون الرسالة التي ائتمني عليها لما كان فيها من الصراحة التي يمكن أن تسبب موجدة على أستاذنا الذي أخذنا عنه فن التذوق الأدبي وفن الإلقاء الإذاعي.

عن دمشق في٥-٧-١٩٦٠

الأخ وليد

أمس، انفلت من قيد العمل، ولا أقول بؤرة، إلى بناء آخر من أبنية الإذاعة يسوده بعض هدوء.

وأمسكت ذكرياتك .. وأمسكتني .

وكانت فيما مضى تمسكني ذكريات دوهاميل وبطله سوليفان.. سنوات عديدة لم أشعر بنفسي فيها كانسان له الحق في أن يتصرف كمفكر لا كآلة تعمل بوحي خارجي. واليوم تطوّح بي هذه الأسطر من واقع عقمي الفكري الحالي إلى بارقة الماضي الحبيب عندما كنت أمسك القلم باصبع وأشتات الفكر بهدب.

وما استفقت إلا عند نقطة الدم التي تسربت من فم انسانك انساننا، ولكن هذه النقطة اندفعت حارة في عروقي.

أنا أيضاً سطرت بالأمس ذكرياتي ..ذكريات المعلم الفاشل في قرية ونشرتها على الناس ليساهموا معي في معرفة واقعي الضائع.

إنني حاقد عليك، أن قد هيجت في أعماقي المارد المخيف الذي حبسته طويلاً في قمقم ذاتي.

ولكنك إنسان ..وأديب .. وأنا إنسان وأديب فاشل وفي ذلك عزاء

أخوك يحيى الشهابي

القسم الأول

سيداتي آنساتي سادتي..

لا تسألوني عن اسمي، فقد أضعته منذ أمد، ولم أعد أذكره، وإن الذين كانوا سبباً في فقدي اسمي الكامل هم أنفسهم كانوا يرددون الآية الكريمة ، ولا تنابزوا بالألقاب. بقي لي لقب بغيض، أصبح اسمي ولقبي في آن واحد.. فمحسوبكم منحوس أفندي[1] .. وإنني أفرح بهذا اللقب على بشاعته، لا لأنه يلبسني تماماً، وإنما لأنه يمنحني " الأفندية " أيضاً، وهذا شرف لم يسبق لواحد من عائلتنا المنقرضة، أن حظي به من ملك أو حاكم، وقد نلته أنا من الشعب.

- ١ -

سأحدثكم عن حياتي مفصلة، وفيها أشياء صغيرة حلوة، لكن أغلبها شقاء، ولهذا ستضحكون كثيراً.

---

[1] – كانت ألقاب الباشا والبيك والأفندي تمنح لرعايا الدولة العثمانية من قبل السلطان، ثم صارت تمنح في مصر من قبل الملوك حتى سقوط الملك فاروق في أوائل الخمسينات، لكنها لم تختف من الحياة الإجتماعية.

اضحكوا ما طاب لكم على حياتي، فلا مانع عندي من أن أكون نافعاً في مساركم، إذ من الناس من لا ينفع بتاتاً، لأنه يصرف وقته كله في الضحك فقط. وليس لي عندكم سوى رجاء واحد ..أن تذكروا أن الذي عاش تلك الأحداث كان إنساناً، ولا أصفه بأنه كان أحسن منكم، ولكنه لم يكن أسوأ منكم على كل حال.

وأتمنى أن تشتموني كثيراً، فقد سبق وسمعت أناساً عديدين يشتمون الفنان كلما استحسنوا فنه، ويلعنون المنظر إذا شاقهم، فيقولون معلقين على كل أمر ظريف وجميل كما يلي:

- يلعن أبوه شو فنان .. يضرب شو ظريف.. يخرب بيته أديش حلو..

وأنتم والحمد لله ..فنانون وظرفاء و(حلوين).

- ٢ -

أيتها السيدات والأوانس أيها السادة..

سأحدثكم من البدء، في البدء كنت علقة وكانت العلقة من قَبْلُ نطفة، وإنني لا أستحي إذ أورد أرومتي فقد تم النكاح شريفاً، ولكنه لم يكن متكافئاً.

لا زلت ألعن في سري حتى هذه الساعة ليلة صيف مقمرة قبل خمسة وعشرين عاماً، لأنه في تلك الليلة قد تم خلقي. كانت والدتي جالسة على كرسي عريض في صحن الدار وتحت عريشة ياسمين وارفة، وقد مدت ساقيها البضتين وهي في كامل زينتها. إني لا أعيب في والدي ضعف أعصابه فهو رجل متدين موفور النشاط، وحلاله - أي والدتي - تصير فاتنة جداً حين تتزين، ثم إنهما كانا في ليلة صيف حارة وندية.. وما أفتن سحر القمر في ليالي الصيف!.

حدق والدي في صدر أمي، ثم حول بصره نحو عريشة الياسمين وراح يتنسم شذاها بتنهدات عميقة ومتكررة، لكن نصفها أو أكثر لم يكن سببه طيب عبير الياسمين، لأنه عندما صلى على النبي قال ذلك بصوت مبحوح، ولقد حاول التشاغل مراراً عن الفكرة الملحة التي راودت ذهنه، فلديه موعد هام يجب ألا يفرط به.

إن والدتي قد عرفت حال والدي منذ سمعت فحيح صوته المبحوح، لكنها تجاهلت الأمر وكانت تلضم الإبرة محاولة ضم طوق من الياسمين المتساقط، ولقد أبقت ساقيها البضتين ممدودتين أمام بصره. ولم تلبث أن علقت الطوق حول عنقها الأتلع، فاحتار والدي المسكين أيهما أشد بياضاً صدرها أم طوق الياسمين!.. ولم يعد يستطيع مقاومة إغراء فتنتها، ولا الرغبة التي اختنقت تحت جلده، فأخذ يرتعش، ولا سيما عندما حركت جسدها فتجمع الثوب اللدن الشفاف في حضنها، لقد نسي آنئذ موعده الهام برمته ولم تفلح القراءات التي حرك شفتيه بها في تماسك أعصابه.

إن أشياء كثيرة في تلك اللحظة تجمعت فوق إحساسه وجعلته يلقي بطربوشه[٢] إلى الأرض، ولم تمض لحظات حتى كان طوق الياسمين ملقى إلى جانب الطربوش، وكانت أعداد من حباته مصابة بعناء وجهد وصارت أشلاء.

هكذا تم خلقي وهو مكروه دون بسملة على ذمة الفقهاء، وفي وقت كان مفروضاً أن يصرف في سبيل موعد هام فصرف من أجلي، وهكذا كان أول عهدي بالنحس والشقاء، إنني ربيب حالة عصبية مستعجلة، ولحظة انهيار لا إرادية كانت أسيرة ضعف جائر.

- ٣ -

استيقظ والدي في الصباح تعباً، واستيقظت والدتي تعبة أيضاً، وكانا لا يجرآن على النظر في عيني بعضهما، لأن ذكرى ليلة لذيذة ومرعبة لا تزال في ذاكرتيهما. إنها لذيذة لما كان فيها من متعة وتمتع، وهي مرعبة لأنهما اتفقا قبل ذلك على تطبيق برنامج خاص غايته عدم الحبل. لكنهما خرقا الاتفاق فخسرا الجولة.

قال والدي وهو يتربع على السجادة إزاء مائدة الإفطار: أرجو ألا تكوني قد حبلت ليلة البارحة؟.

أجابته والدتي خجلة: أظن أنني لم أكن مستعدة للحبل.

---

[٢] - بقي الطربوش مستعملاً كشعار للرأس حتى منتصف القرن العشرين تقريباً. وتأخر اختفاؤه في مصر.

حاولت أن أتحرك في أحشائها، لأنبئها عن وجودي ولكنها لم تشعر بي لأني كنت أضأل من أن أقدر على الحركة.

نسي كلاهما الحادث وتكررت التجربة العاطفية في أوقات موزونة متفقة مع ما يسمى "بروزنامة الأطباء لعدم الحبل" وكنت نفسي قد كبرت بعض الشيء، وأخذت ألاحظ قليلاً من الفزع في عينيّ أميّ، وسمعتها تحدث أمها - أي جدتي - قائلة: لا يريدني زوجي أن أحبل، وحجته أننا لم نستقر تماماً، وأن ثلاثة أشهر غير كافية لخلق الانسجام بين اثنين، ولهذا فهو يرغم نفسه على تطبيق منهاج خاص في التجارب العاطفية ..لم يخرقه سوى مرة واحدة.

أجابتها جدتي: إذن قد حملت.

استنكرت أمي الجواب وقالت: لا يمكن أن يتم الحمل بمثل هذه السرعة!.

قالت جدتي: نعم.. يمكن أن يتم ..فقد حملت بأخيك البكر من الأسبوع الأول.

شهقت أمي فزعة وعاودت النظر إلى بطنها لكنها لم تتلق أي جواب منه.

كانت أعضائي قصيرة ومتلاصقة وأصابعي أقصر من أعضائي، فذهبت جهودي سدى في الوصول إلى جدار بطنها الداخلي.

وقع الحسم بعد مضي شهر، حين دق ناقوس الحبل جرسه الناعد فامتنع المحيض وبدت تباشير النهدين، وأحست والدتي برغبة ملحة في تناول الحلويات والقُياء في آن واحد. إنه عين الوحام، ولم يبق مجال لتأويل آخر إلا أنها حبلى.

تقدمت أمي نحو أبي، وكان جالساً على أريكة مريحة وسارحاً مع أفكاره. حدق في وجهها فشاهدها مرتبكة وكانت تشعر كأنه ذنبها أن حبلت بي، ولو كانت ذكية بارعة لبادرته باللوم والاتهام ولكنها مسكينة أنثى تعيش في الشرق.

أغضت بصرها حياءً وقالت بتلعثم: ابن عمي .. ابن عمي..أنا حبلى.

زورها والدي بغلظة ثم انفجر في وجهها بصرامة كزجاجة مملوءة بمياهٍ غازية فائرة وقال: يالك من قطة تحبلين من رائحة رجل.

لو كنت مغفلاً لشعرت أنني المذنب الذي سبب الخصام بينهما لكني شعرت بالعافية، واقتربت من جدار الرحم وألصقت أذني أستمع إلى المشاجرة الطريفة بينهما وقد راقت لي كثيراً..أو لست محور الكلام؟.ولكني فوجئت بأمر رهيب.. كان إلى جانبي علقة أخرى تتسمع إلى النقاش قرب جدار الرحم.

مددت يدي ولكزتها فالتفت الآخر مذعوراً وقال: من أنت؟.

قلت له: بل حدثني من أنت؟.

أجاب: أنا ابن هذا الخصام.

قلت: أنت أخي إذن.

وتعانقنا فرحين مسرورين، فقلت له: تعال ندبك معاً لتعلم أمي أننا طفلان ولسنا طفلاً واحداً.

أجاب أخي: كلا سيجن والدنا إذا قُدِّر له أن يعرف الحقيقة.

فعدنا إلى الاستماع وكان والدي يهدد والدتي بالطلاق ويقول: يجب أن تسقطي الطفل بأي وسيلة.

أجابته والدتي من خلال عبراتها وكانت تشرق بالدموع: كما تريد سأجرب كل الوسائل حتى أطرحه من بطني.

التفت نحو أخي فوجدته هلعاً. وقال لي: هل فهمت الحديث يريد أبي بَيْدَنا.

أجبته: نعم.. ويجب أن نتشبث بالحياة، وألا نركن إلى الخوف والفزع.

❁❁❁

بدأنا نستعد لمواجهة المعركة الرهيبة غير المتكافئة مع والدين قر رأيهما على إعدامنا بشتى الوسائل، ولم نكن نملك وسيلة واحدة تساعدنا في الدفاع عن وجودنا. لقد رمانا سوء حظنا بين أيديهما دون شفقة أو رحمة، ولم نجن من ذنب غير أننا كنا ثمرة الرغبة والشهوة واللذة وكنا أجمل تعبير عن خصب الحياة.

رفعت يدي اللزجة فوق رأسي الطري وصرخت مهدداً: أيها الوالد القذر، كان أولى بك أن تكبح جماح نفسك الشهوانية، وأن تستغني عن لحظات من اللذة بدلا من

أن تستغني عني أنا المسكين الذي طالما حلم بالحياة والشمس والحرية.

- ٤ -

ما أكثر المشاورات التي تدور! .. وما أوسع الاتصالات التي تجري!.. وما أعنف الاجتماعات التي تعقد! ..من أجل إجهاض الحبلى وإسقاط حملها. إن همساً مستمراً قد دار خلال عدة أيام بين مجموعة من الأشخاص لهم صلة بالموضوع وبين مجموعة غير ذات صلة. لقد ضمت الاجتماعات أعداداً من النسوة كن في حالة قرابة، فالتأمت جموعهن في سهرات طويلة.

كانت الحماة تتصدر في كل اجتماع مع بناتها وهن يمثلن طرف الزوج. وحضرت الاجتماعات جدتي وخالاتي وهن يمثلن طرف الزوجة ويتكلمن نيابة عن أمي. ولقد كثر الأخذ والرد والتشاحن حول موضوع الإسقاط حتى تدخل فيه بعض العجائز الاختصاصيات بالطرح بواسطة النباتات وكنّ مشهورات في البلد بطول باعهنّ في هذا الاختصاص.

خجلت أمي من كلامهن كثيراً ولا سيما عندما كنّ يتحدثن إليها عن الإرشادات المضحكة أحياناً والمثيرة في أحيان أخرى، والتي تتجاوز حدود الأدب غالباً.. إنني شخصياً لا أستطيع أن أعيد عليكم أي نصيحة أو أن أصف لكم الأفعال المطلوبة من والدتي في باب واحد من الأبواب. فشعرت أن قدر أمي قد انتقص في أكثر من مرة ففضلت أن أسقط من نفسي ودون وسيلة لأريحها من الثرثرة المستمرة الخالية من اللياقة والأدب من خلال الحديث عن مسكني الموقوت ذي الأسماء العديدة.

كدت أفعل ذلك مراراً لولا أمران هامان منعاني من تنفيذ الفكرة، وجعلاني أقرر البقاء. كان أولهما تعنُّت والدي فأصبحت القضية قضية نكاية بيني وبينه، وكان ثانيهما إحساسي بحنان أمي الذي استمرأته فقد غدت تتلمس بطنها بأصابع مرتعشة، وتبكي كلما خلت مع نفسها.

كنت أدرك جيداً أن هذه الدموع - وليست الدموع إلا عواطف مذابة - من

أجلي، فما أبلد أن أخيب أملها وأترك الحجرة الدافئة وأنزل متعمداً الانتحار.

كان أخي يلتصق بجدار الرحم ويتنفس بصعوبة فقد أورثه التفكير في المأساة مرضاً خطيراً.

قالت عجوز شمطاء: إن أعواد الختمية البيضاء خير واسطة لإسقاط الحمل، وقر الرأي على استعمال أعواد الختمية البيضاء. وكم كان المنظر مسلياً عندما استعملت أمي أعواد الختمية ..أؤكد لكم أن والدتي تعبت من الأعواد أكثر من الضرر الذي لحقنا، لأن الأعواد أصبحت بالنسبة لنا وسيلة للانتقال بين جوانب الرحم، فكنا نتسلق عليها ونلهو فوقها طول النهار حتى إذا أمسى الليل رقدنا في ظلالها بأمان.

قالت عجوز أشمط من الأولى: استعملي الحقن فإنها أسرع في إسقاط الحمل.

وقدمت لها تركيباً خاصاً لحقنة مؤلفة من أقذار العالم. شعرنا بعد مدة بطوفان من تلك المواد قد داهم مسكننا فهربنا مسرعين والتجأنا ضمن طيّات اللحم، لنحمي نفسنا من تلك المواد القذرة المؤذية.

مرت ساعات رهيبة بقينا خلالها متعلِّقين في أعلى نقطة من الرحم قرب سقف البطن وملتصقين بجداره، وكانت حمم المزيج الرهيب تتلاطم في الداخل كمنطقة من سقر تنتظر سقوط واحد منا لتبتلعه.

قال أخي وقد وهنت أعصابه: يالها من عجوز مجرمة أما كان أكثر عدلاً أن تضع نفسها في برميل من هذه المواد المؤذية ليتخلص العالم من شرها.. لقد تعبت يا أخي كثيراً إنني لا أقدر على البقاء معلقاً.

قلت له: تشجع نتجنب الكارثة.

قال: يداي تؤلماني كثيراً..إنني....

وسقط دون أن يتم عبارته، وابتلعته لجة المواد المؤذية، فدسست وجهي في اللحم حتى لا أشاهد المسكين وهو يتفتت إلى أجزاء صغيرة.. وأخذت أصلي أن يهبني ربي القوة والشجاعة.

أصيبت أمي بالتهابات خبيثة في رحمها نتيجة الخبص المستمر الذي دام قرابة شهر، فوقعت طريحة الفراش، وأخذت الحمى تلهب جسدها بحرارتها الكاوية.

قدرت من حالة أمي أن استعمال المواد الضارة قد انتهى فهبطت من مكمني، لكن الالتهاب عم الرحم كله، ولم يبق مكان مريح واحد يمكن أن أستريح فيه أو أتغذى منه، وأصبح طعم المواد ممجوجاً.

قال الطبيب بعد عدة زيارات: لقد زال الخطر وستتماثل زوجتك نحو الشفاء ولا أستطيع أن أتكهن ببقاء الطفل أو عدمه، ولكني أؤكد لك أمراً واحِداً.. لقد أصاب الالتهاب المبيضين في الرحم ولهذا لن تحبل امرأتك طوال عمرها.

أحس والدي بالفاجعة آنئذ.. سيحرم من الأطفال مدى الحياة، فبكى عدة ليالٍ بدمع هتون، وعجزت عن تحديد شعوري تجاهه، هل أرثي لحاله إذ كان مغفلاً أو أتشفى من آلامه وأفجعه بي أيضاً؟.

كان القرار صعباً عليَّ، لأن ما أغامر به هو وجودي ذاتي. وخطر لي أن والدي لن يضيره هذا الأمر كثيراً فما أسهل أن يطلق أمّي المسكينة لأنها لا ترزق بأطفال، ويتزوج بأخرى تنتج له عراً من الأولاد بين محمول على الذراع أو في البطن ومجرور في إثرها جراً.

تماثلت أمي نحو الشفاء بعدما صرف والدي مالاً كثيراً ووقتاً كثيراً أيضاً، وأستطيع أن أقدر النفقات التي صرفت في أسبوع واحد من أجل الأطباء والأدوية بما لا يقل عن مصروفي كطفل لسنة واحدة أو ما يكفي لشراء عشر زجاجات من الشامبانيا الفاخرة.

عادت محاولات الإجهاض بالخسارة المادية والمعنوية على والدي الذي أنفق ماله سدى، وعلى والدتي التي لزمت الفراش طيلة شهر كامل، وعليَّ ذاتي إذ أصبت بالضمور الجسماني، فكانت هذه العاهة أول هدية قدمت لي من قبل والديَّ.

أنظر إلى جسدي الآن. إنني لست طويلاً وأنا نحيل في الوقت ذاته .. هل أشتم حظي؟ ..أ ألعن الساعة التي تزوج فيها أبي من أمي. لن أفعل ذلك أو لست محظوظاً أنني بقيت على قيد الحياة بينما مزقت السموم أخي؟.. يكفيني أنني ربحت وجودي ولو أنه ظل من وجود أمثل، إنه وجود على كل حال وليس عدماً مطلقاً.

– ٥ –

أزعج أمي أن تفقد انسجام جسدها الممشوق بالحبل، فأخذت تستعمل ألواناً من المشددات والأربطة وكأنها استكثرت عليَّ ذلك المكان الضيق أن أحتله وحدي فراحت تنازعني عليه. وكان جسمي يكبر يوماً بعد يوم وهي تزداد إصراراً على تصغير بطنها أمام أعين الناس.

كنت أشعر بضيق وحرج في صدري، وكانت الأربطة تكاد تخنقني وكنت أسائل نفسي: لماذا تزوجت والدتي إذا كانت راغبة عن الحبل وعن اتساع بطنها.

إنني لا أنكر أنها تعاني من جراء حملي ألماً، فهل تستطيع أن تنكر أنها لا تمارس خلال الحمل لذة.. في الواقع أنني وحدي أعاني الألم دون لذة. ومن أين لي اللذة دون الألم؟ طالما أن أمي تبلع الثوم مع الأكل دون حساب، ولا تتأخر عن ازدراد أي طعام أو شراب مهما كان طعمه دون مراعاة لمزاجي الخاص، فهي تأكل البامية والملوخيه والطباخ روحه، بينما لا أستسيغ ذاتي لوناً واحداً من هذه المأكولات. وتتجنب المشروبات الكحولية، والتدخين لأنها من بيئة لم تعتد نساؤها على تعاطيها، وكنت أتمنى أن تغب في المناسبات الذكية ولو جرعة قليلة من الخمرة ودون إدمان طبعاً، فتصيبني نشوة ضئيلة لكنها كافية لتفرح قلبي[٣] وتسكن ألمي المتزايد، أو أن تسحب نفساً من لفافة تبغ يريح خدرها فكري المتعب.

أجل ..اشتهيت جرعة واحدة من النبيذ أو العرق أو أي صنف.. اشتهيت نفساً ولو من سجائر رخيصة.. ولا تعجبوا يا أصحابي أن يشتهي صغير مثلي هذا الأمر،

---

[٣] – إشارة مقصودة إلى قول المسيح: قليل من الخمر يفرح قلب الإنسان.

ألست مقيماً في بطن امرأة تحمل الفضول إلى هذه الأشياء المحرمة، إذن لا تستغربوا حظي العاثر الذي رماني في بلاء الاشتهاء، فقد حرمت أمي نفسها من المشروب المفرح، وحرمت بدوري حتى أنني أكاد أختنق دون ما نتيجة[4]. ما كانت أمي تتجرأ على تناول غير منقوع عرق السوس البارد، وكانت تشربه بكميات كافية لتوصلني إلى حالة من السكر و فقدان الوعي، وهي تحسبني أتمنى حماماً منعشاً منه.

كنت كالعبد في بطنها ..من واجبي أن أفكر كما تفكر، وأن أنطق كما تريد وأن أستلقي كما ترتاح وأن أنام متى شاءت أن تنام.. لقد كانت الحرية معدومة في موطني الأول، ولكن ذلك لن يطول إلى الأبد فإن مدة الحمل قصيرة - والحمد لله - وسأغدو حراً عما قريب أفعل ما يحلو لي، وأذهب أينما شئت مع رفاق المستقبل المتحررين بدورهم من بطون أمهاتهم.

- ٦ -

حدثت مشاجرة بين أمي وجارتها وكنت سبب الخصام .. حين قالت الجارة: بطنك يا جارتنا نافش كثيراً ..ستلدين أنثى وليس ذكراً.

انبرت جدتي للإجابة عن أمي فقالت: ستلد ابنتي طفلاً ذكراً فقد كان بطني في أخيها البكر كبطنها تماماً، كما وأنها تتوحم على " الكنافة " ولقد توحمت في أطفالي الذكور كلهم على الحلويات.

تشجعت أمي ودخلت في الحديث: سأنجب طفلاً جميلاً ولا يهمني أن يكون ذكراً أو أنثى فهو طفلي البكر، أما أنت فلن تنجبي أيها المسكينة غير الإناث.. فلديك ثلاث منهن حتى الآن وسيصبح عددهن عشر بنات.

ردت الجارة بعصبية وهي تصرخ بملء فمها: لقد أنجبت ثلاثة أقمار، ليس بينها واحد اصطناعي ويحبني زوجي كثيراً، إنه يغسل لي قدمي قبل النوم ويفرك ظهري ..أما أنت فاللوم والتثريب عليك لأن زوجك عسر جداً وسيطلقك إن أنجبت له

---

[4] - أثر الوحام على الطفل نتيجة اشتهاء الأم للمواد الممنوعة أو غير المتوفرة.

" خنفساء " وأرجو أن تتجبي صبياً حتى لا يخرب بيتك.

قالت ذلك ثم تركت الغرفة وكان لونها آنئذ أشد اصفراراً من الشمام وجسمها أسرع اختلاجاً من ريشة في يد عواد ماهر.

حاولت الصراخ لأسمع أمي أنني طفل ذكر ولست أنثى فقد انخرطت المسكينة في البكاء، وحاولت جدتي تهدئة خاطرها لكنها لم تفلحْ فتركتها وانصرفت من الغرفة. وعاودت بدوري الصراخ وكان صوتي قد اشتد فسمعتني والدتي بوضوح فوجف قلبها لكنها لم تلبس أن ابتسمت لأنها كانت المرة الأولى التي تكلم بها رزقها وكأنها كانت آنئذ في وادي الطور° فلم تسعها الفرحة وهرعت إلى أمها لتخبرها بذلك قائلة: ماما ..ماما.. لقد كلمني ابني.

أجابت جدتي: تقبري أمك لماذا أنت فزعة، لقد كلم الله موسى ثلاث مرات.

قالت أمي وما زالت مضطربة: سمعت صراخ طفلي في بطني، لقد صرخ مرتين وكان يناديني واعاً.. واعاً..

هزت جدتي رأسها بعمق.. ثم أطبقت جفنيها وحلمت وقتاً طويلاً ونطقت بعد ذلك حكمتها الرائعة التي اكتسبتها من جدتها ومن الحياة وهي خلاصة قرون طويلة كقرون الوعل: الحمد لله الذي صرخ ابنك مرتين وليس مرة واحدة لأن في صراخه مرة واحدة فألاً سيئاً جداً.

هززت رأسي مراراً وتكراراً وبعمق أيضاً أكثر من جدتي، ثم أطبقت جفنيَّ بشدة وحلمت وقتاً أطول من الوقت التي استغرقته القديسة العارفة حتى أنني لم أستيقظ إلا بعد الظهر. ولكني رغم ذلك كله لم أدرك حكمة جدتي الرائعة وفشلت دون كشف المجهول ودون الوصول إلى السر الكامن بين صراخي " واعاً " أو " واعين " وبين الفأل الحسن أو السيئ. لكني حمدت الله أنني صرخت واعين وسأصرخ ثلاثاً في المرات القادمة، حتى لا يبقى مجال لتدخل أي شيطان رجيم.

° - إشارة إلى الكلام بين موسى وربه في وادي الطور.

صارت الخيلاء تملأ نفسي لأنني محط الأنظار في كل حركة أقوم بها أو أي حرف أنطق به، ولعلي ما كنت أنطق عن الهوى، فلكل حركة تفسير وشروح وافية ولكل صرخة تأويل وتعليل حتى صرت أخلط أحياناً بين صراخي وتصريحات قادة العالم من رؤساء جمهوريات متوجين أو ملوك غير متوجين.

❁❁❁

قررت والدتي الذهاب إلى السينما، فقد قيل إن فلماً ناطقاً سيعرض لأول مرة على الشاشة باللغة العربية. وكان اسم الفيلم الوردة البيضاء لمحمد عبد الوهاب. وكانت اسم صالة العرض الفخمة صالة الكوزمغراف.

حاول والدي أن يثنيها عن الذهاب وحجته في ذلك أن الازدحام شديد وأن الجو موبوء وكليهما ضار إذا لم يكن بالنسبة لها كحامل فبالنسبة إلى جنينها - أي أنا - كمحمول.

- ٧ -

شكرت بيني وبين نفسي حرص والدي على راحتي، ولكني قدرت في الوقت ذاته أنه مبالغ في تقدير الأضرار، فالسينما أخف وطأة من عملية الإجهاض ما في ذلك شك ولا ريب.. وتمنيت في ضميري اللاواعي أن تظل والدتي مصرة على ارتياد السينما لأني كنت راغباً في رؤية الفيلم ولم أكن قد ذهبت إلى السينما قبل هذا التاريخ. فكانت تجربة جديدة ولا يضير المخلوق قليل من الإزعاج في سبيل الخروج من أفق معرفة إلى أفق معرفة مختلف.

عرفت والدتي أن هذه فرصتها الوحيدة فقد تساهل عدد كبير من الرجال مع زوجاتهم في ارتياد السينما في تلك المناسبة، انه فلم عربي ناطق يمثله عبد الوهاب. وكانت تعلم أيضاً أنه لن يسمح لها بتاتاً في المستقبل بالذهاب، فلا تبقى حاجة بعد الوضع لمداراة زوجته، ومناقشتها بصوت رحيم، وسيعود كأكثر الرجال إلى اللهجة القاسية الخشنة فليست أمي حاملاً يخشى من أن تجهض ولا هي ذات إحساس رقيق يمكن أن يمزق بل ستعود حرمته التي من واجبها الأول طاعته طاعة عمياء. تشبثت

برأيها فكان لها ما أرادت وكأنها الملكة الوالدة التي ستضع ولي العهد.. وماذا يهم.. أو ليس كل وليد ولي عهد أبيه؟.

لحق التعريض بأمي من سفهاء خلال سيرها في الطريق، وكنت متصدراً في بطنها أكاد أناطح الناس وأدفع بهم ليفسحوا لي طريق المرور. وعاب كثيرون عليها خروجها من المنزل وشتمها آخرون حتى بنات جنسها قد خن مشكلتها فأطلقت ألسنتهن تجريحاً لم يخل من سفاهة أيضاً، واتضح أنه لا يوجد أخون من المرأة لمشاكل المرأة إلا المرأة.

أصابتني بعض اللكزات في خاصرتي أثناء دخولنا، فعلمت أن والدي كان محقاً، ولكن هيهات أن تخرج من أفق إلى آخر دون أن تدفع الثمن بقدر النقلة، فصبرت على اللكمات التي نالتني في وجهي وعلى ظهري وراعني بأس بنات حواء في مغالبتهن قصد الدخول، وكانت أغلب الحفلات بعد الظهر مخصصة للإناث وحاولت جهدي أن أتكوم تفادياً للكمات الشديدة، حتى وصلت أمي وجلست في مقعدها وكان مقعداً خشبياً مزعجاً.

أطفئ النور وساد الظلام وابتدأ عرض الفيلم .. وفشل عبد الوهاب في تمثيله فشلاً ذريعاً وأصر على فشله حتى نهاية الفيلم، ولكنه أبدع كمطرب ناشئ، واعتلى عرش الطرب دون منازع. كانت قصة الفيلم ضعيفة ومفككة حتى أنني نمت في قسمها الأخير، ولم أستيقظ إلا ووالدتي تبلع قرصاً من الأسبرين لتسكن صداع رأسها، ولم يخطر لبالها أن الأسبرين يزيد في خفقان قلبي فكدت أشكوها لوالدي ولكني عدلت خشية من شماتته بنا.

لم أجد في السينما أمراً طريفاً ولا شيئاً جديداً ولعل ذلك ناتج عن مشاهدتي الأفلام طوال النهار. إنني أستغرب اندفاع الجماهير إلى السينما على مثل حماسهم المعهود مع أنهم يستطيعون أن يشاهدوا مثلي مئات من الأفلام مجاناً، ولا تحتاج القضية إلى أكثر من تدقيق النظر، فوالدي وحده قصة سينمائية طريفة دون تصنع في

التمثيل، وجارتنا فـي الحـارة حـوار كـامل مثـير وأمـا حمـاة أبـي مـع حمـاة أمـي فهمـا سيناريو شيق، وأما العمات والخالات وبقية الأقارب فهم كلهم رواية متسلسلة تعرض كل العمر دون ملـل وبـلا نهايـة، ومثلهـم النـاس فـي السـوق والمنـازل وأينمـا ظهـروا شاشات عروض ضخمة متنقلة.

عزمت على أن أراقب النـاس فـي المسـتقبل دون الذهـاب إلـى السـينما، وإذا حاولت أمي إعادة الكرة والخروج على إرادتي فإنني أتمـارض وأتحـرك حتـى أشـعرها باقتراب موعد قدومي فتخاف وتلزم المنزل.

صرت أفضل ذهاب أمي إلى الحمام أكثر من ارتياد السـينما، لأن الحمـام يتيـح لي مشاهد طبيعية جداً، تفوق مشـاهد السينما إثـارة، وأجـذب للنظـر الـذي يخشـى أن يرف، فأبقى محملقاً مشدوهاً من غير أن أعرف سبباً لانجذابي.

- ٨ -

مُنِعَتْ أمي من ارتياد الحمام، لأن للماء الساخن تأثيراً سـيئاً علـى الجنيـن فـي أشهر الحمل الأخيرة - أي في مثل سني - فحرمت من متـع تسـليتي المفضلـة، وهـي التدقيـق فـي مكـامن جمـال الإنـاث أثنـاء عـرض مفـاتن عريهـنّ واقفـات تحـت شـفوف انسياب المياه على بشرتهن في لحظة سكب الماء الأخيرة قبل خروجهن من الحمام.

ليس الحمام في بلدنا من اجل الاغتسال ونظافة البدن والأعضاء فقط، بـل هـو بناء رحب ظريف يصلح مكاناً للهو والمرح، ويليق بأي فكرة تخطر لبالك، وقد يتعذر الاغتسال فيه ويستحيل بسبب فيضان الأنهر، أو رداءة مياه الآبار ولكنه يبقـى صالحـاً لقضاء أوقات مسلية تمضي سريعاً.

تحتشد النساء في الحمام[٦] لتجاذب أطراف الحديث والمشاجرة وتدريب اللسـان

[٦] - كانت معظم الأسر في سورية تفضل ارتياد حمام السوق.وكان مخصصاً للنساء من منتصف النهار حتى غروب الشمس. واستطاع المؤلف أن ينقل ولعه بالحمام إلى شخصيات صحفية وأدبية وسياسية وفنية. فكان من اشهر الشخصيات التي واظبت على الإنتقال من العمل إلى الحمام والسهر هناك وتناول الطعام أحياناً، من أواخر الستينات حتى منتصف السبعينات تقريباً: جلال فاروق الشريف، زكريا تامر، عبد الله الشيتي، ياسين

حتى يصبح " طويلاً " أو يذهبن إليه من أجل أن تتم فيه خطبتهن كما يقول المثل "على عينك يا تاجر" حيث تميس الصبايا شبه عاريات. ومنهن من تذهب إليه رغبة في قتل الوقت فتجلس فيه من الساعة الواحدة ظهراً حتى السابعة مساءً. ويكون الزوج أو القريب المسكين منتظراً أمام الباب وتحت وابل المطر في الشتاء ليحمل لحرمه المصون " البقجة العامرة " وما تبقى من صحون الطعام الفارغة التي لم تحطم في الشجار.

لقد عني أصحاب الحمامات بتجميل حماماتهم تنافساً في مجال كسب الزبائن، حتى بلغ من شهرة بعض الحمامات أنها تفضل على سيران في الربوة أو على طريق الشادروان أو أي استقبال أو احتفال مغربيين. وهي حمامات معمرة يرجع تاريخ بنائها إلى عهود تاريخية مزدهرة، فيحمل أكثرها أسماء حكام المدينة المشهورين.

ولعل من أجمل ساعات الحمام، حين تفد إليه عروس وتحتدم التعليقات فمن قائلة: جميلة ولكن عينها صغيرة.

إلى معلقةٍ على عجيزتها قائلة : عجيزة صغيرة.

والويل كل الويل للمعلقة، إذا حدث وسمعت التعليق واحدة من المواليات للعروس أو لأمها واللواتي يكن غالباً مدعوات لتناول الطعام، فترن الطاسات آنئذ وتتطاير الفوط حتى تفتقد أوراق التوت ذاتها، ويبدأ الصراع بشد الشعر وضرب الرؤوس برؤوس الكرنب إذا توفرت، وإلا استخدمت القباقيب الخشبية، ولا تعود سالمة من الخصام إلى زوجها إلا طويلة العمر وتظل متعبة إثر ذلك أكثر من أسبوع وحتى موعد الحمام المقبل، من أجل معركة الثأر.

ويحدث أن تمر ذات غنج ودلال وهي تميل بقدها المياس وتطلق ضحكة

رفاعية، ايلي خريستو، عباس الحامض، سعيد جزائري، زهير مارديني، خليل الخوري، علاء الدين كوكش، غسان جبري، رياض ديار بكرلي، أدهم الملا ، علي الأشقر، شكيب غنام، عبد الوهاب بركات، محي الدين صبحي، رضوان عقيلي، نذير عقيل، خلدون المالح، توفيق غازي... وكثيرون. وشهد حماما النوفرة والسلسلة نقاشات ثقافية ، وأحاديث التهيب من المستقبل.

أحلى من تغريد الشحرور في صباح ندي، وتروح وتجيء أمام العروس وأمها وحماة المستقبل كاشفة عن نحرها مرة وعن عجزها مرة، وعن نهديها مراراً، وما أروعها من صبية هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة. فتتصدى أم العروس للصبية المغناج الكاعب بلسان لو وضع فوق الشعر لحلقه وفوق الصخر لفلقه، وتدعو على الحلوة "بقصف العمر" وطمس العينين والحمى وما شابه ذلك من مهلك الأمراض السارية التي إن انتشرت لما بقي حرث أو نسل.

وتغضب الوالدة المسكينة خوفاً من أن ترى حماة ابنتها جمال الصبية وتقارن بين كنتها وروعة القد الأهيف و صُباح الوجه المليح، فيخلق القال والقيل وهي لم تصدق أن ابنتها قد خطبت وانتهى سفك دم الخنزير كل صباح أمام الدار[٧].

كان الحمام موطن قصص شيقة، فأحببته وصرت أتمنى لو تقيم أمي فيه دائماً، فما ندخله حتى تجلس أمي متربعة خلف الجرن الحجري الذي يتدفق الماء إليه بغزارة من صنبورين خشبيين، وأجلس بدوري متربعاً في بطن والدتي. وأطلق إحساسي في جميع الاتجاهات أتابع الصبايا وأردافهن الرجراجة أو أستمع إلى حوار العجائز، وكم كان يدور حول أمور طريفة، فيتحدثن عن تجديد العمر وصبغة الشعر، ويغمزن من قناة الشابات الحسناوات بلسان الفجور ولكنها تعليقات تثير الضحك ولاسيما التي تتناول عضو البدينات من البنات.

للحمام رائحة مذهلة هي مزيج روائح عديدة، تبدأ من رائحة المواد التي تحرق في القميم تحت ممراته الحجرية ومعظمها من نجارة الخشب ونشارته وقمامة البيوت من بقايا الخضر، فيكتسب الماء الساخن تلك الرائحة التي تختلط عند سكب الماء مع رائحة الحناء وشذا العطور وتضاف إليها رائحة مفرز الأجساد من خلايا البدن المتفتحة بتأثير حرارة الحمام وحرارة الشباب، فلم أخبر رائحة نفاذة مهما بلغت في زخمها تتفوق على رائحة الحمام عندما يكون مكتظاً بالنسوة، حتى أنني لا زلت

---

[٧]- إشارة إلى معتقد يكلف الملائكة بتضحية خنزير تقية من الشيطان الذي يحوم حول دار العذارى ليوقع بهن.

أذكرها إلى الآن في أعصاب شمي وأقدر على مقارنتها دون حضورها.

قال والدي كلمته جازماً: أجـل .. يجب أن تمتنعي عن ارتيـاد الحمـام وقتـاً.. فالحمام يضر طفلنا كثيراً - أي أنا -.

إنني لا أعلم.. هل كان الحمام يضرني حقيقة أو هذه " فزلكة " من أبي، لكنني أشتاق إليه، وكانت رغبتي آنئذ لو أمكنني أن أنتحر فيه لما ترددت.. أو ليس في بعض تفصيلات الحمام في ميقات النساء ما يشبه الخلود.

أطاعت أمّي أمر أبي، وامتنعت عن ارتياد الحمام، وكان أسفي شديداً.

- ٩ -

جمع والدي عدداً كبيراً من الكتب الصفراء وانكب على دراستها، وكـان يخيل لمن يراه جالساً خلف الطاولة ومهتماً بتقليب الصفحات، وتسـجيل الملاحظـات، متريثـاً حيناً وحيناً عجولاً، أنه قد غدا الفيلسـوف سـقراط أو الطبيـب الفيلسـوف ابـن رشـد أو المتصوف الحائر الغزالي؟.. ويستحيل أن يخطر في باله أن هذا المنكب على الكتب مـا يزال سماناً بسيطاً في سوق الطويل.

كانت هيئة الجد في الدراسة بادية على وجهه ولازم الكتب في الآونة الأخيرة قبل ولادة أمي ملازمة تامة حتى أصبـح يتنـاول عشـاءه علـى صفحاتهـا. فكيـف يمكـن لأحد من الناس - والحال على مثل هذا الوضع - أن لا يظنـه عالمـاً كبيراً يبحـث فـي أصول الحياة ويفتش عن سر الموت!! أو أشياء من هذا القبيل ممـا لـه صلـة واسـعة بالفلسفة والعلوم ورقي البشر.

أما أن يوجـد مخلـوق واحـد علـى وجـه الأرض، يصـدق أن والـدي كـان يقـرأ عشرات الكتب ويدقق النظر في ألوف صفحاتها بغية العثور على اسم جميل لـي فـإنني شخصياً أتمنى أن أفقد عقلي قبل أن أؤمن بوجود مخلوق كذاب مـن هـذا الطـراز حتـى ولو كنته ذاتي. فقد شككت طويلاً في معرفة الدافع إلى مثل هذا الجد والاجتهاد وظللـت وقتاً أكذب ما رأت عيناي و ما سمعت أذناي وأحسبني مخدوعاً لكنها كانت الحقيقة.

اعتبروني مغروراً.. ولكنني أؤكد لكم دون يمين، قد حدث الأمر وأضاع والدي جهداً غير مشكور.. كم كانت الاستفادة منه سهلة في أي شيء غير العبث لإيجاد اسم جميل، لقد صرف والدي ليالي الشهر التاسع برمته وهو يسعى في سبيل العثور على اسم يليق بالعبد الفقير الداعي لكم بطول البقاء.

قالت والدتي مراراً: عف يا ابن عمي.. واترك البحث في الكتب..ضاق خلقي والله العظيم من رؤيتك منكباً هكذا.. يوجد في أسرتنا وحارتنا والحارات المجاورة ألف اسم يمكن أن نقتبسه اسماً لولدنا.

لكن والدي يجيبها محتدماً: أود أن أنتخب له اسماً جميلاً ورائعاً من أسماء الفرسان والقادة والعلماء.

وكانت تقول بدورها: سأرزق واحداً وليست فرقة أطفال.. ثم أرجوك انتظر حتى أضعه في السرير ونتحقق فيما إذا كان صبياً أو بنتاً .

و يجيب أبي: لقد كلمني الخضر في المنام وأراني طفلي ذكراً ذا بأس شديد.

وأصر على موقفه وتابع العبث في الكتب دون طائل، وتركته والدتي وشأنه ولاسيما أن انشغاله في البحث صار فرصة خلاص من مجالسته، مكنتها من السهر عند الجارات، وهو أمر عسير ومتعذر في السابق دون مناسبة.

طلع والدي علينا بعد طول البحث والتنقيب باسم صار سجني الأبدي حتى وفاتي، كما هي أسماؤكم، ويا له من اسم فاق حدود الإبداع.

قال والدي: سأطلق على الطفل..

وسكت .. وخشيت أن يكون قد فشل في إيجاد اسم لي فقر رأيه على أن يطلق رصاصة على الطفل -أي أنا- لكنه تابع الحديث وكان في صمته يتهجى الاسم الذي سيفرضه عليَّ ولم يتقن قراءته بعد، فقد فشل في نطقه فقط وليته فشل في إيجاده وأطلق رصاصة على دماغي بدلاً من ذلك الاسم..

أعاد والدي الحديث: سيكون اسم طفلنا قذاعة.

سألته والدتي لأنها لم تستوعب لفظ الاسم: نعم ..إذاعة؟؟.

قال لها: ما أغباك! .. قذاعة ، قذاعة..قلت لك قذاعة .. كان المرحوم شاعراً ومغواراً وكان جملة رجلاً عظيماً.

تصورت أن اسمي سيكون في المستقبل قذاعة .. ياحبيبي قذاعة؟؟ لقد كان شاعراً؟؟ اشمأزت نفسي، ليتني أغدو بنتاً بعد الولادة. لم أعلم ما جنيت على والدي من ذنب ليعاقبني بمثل هذا الاسم .. وهل كان من الضروري أن يعد ذلك القذاعة في التاريخ رجلاً مشهوراً لأتناطح مع قذاعته طوال عمري.

نظرت إلى والدي فوجدته مسروراً باكتشافه العجيب وصار يردد: قذاعة.. قذاعة.. يا له من اسم فصيح.

إن أشياء كثيرة مرهقة تفرض على الأطفال، وإن تفاهات لا تحصى تملأ أدمغة الآباء[٨] يجب أن يتحملها الأبناء، إنه لا يريد أطفالاً.. يكفي ولد واحد. بل يجب أن يرزق بأطفال متعددين بخمسين طفلاً أو ليست فرصة للإثراء؟؟.. أنه يريد أن يختار أسماء فصيحة كانت لعباقرة.. ما رأيكم بعدما قر رأيه على اسم قذاعة الذي كان شاعراً ومغواراً.. وكان مجموعة من الأشياء المفيدة التي تدرس حتى اليوم.

إنني أتمسك بسؤال واحد أطرحه أمام جميع الناس: هل ظهر في التاريخ عظيمان يحملان اسماً واحداً ..هل ظهر غير قائد واحد باسم واحد..إن تسمية ألوف الأولاد بخالد وعمر وعلي لم ينجب للحياة عبقرياً كعلي ولا سياسياً كعمر ولا قائداً محنكاً كخالد.

قالت أمي: كلا.. سأسمي طفلي عبيراً سواء أ كان ذكراً أم أنثى. إن اسم عبير جميل جداً.

زورها والدي وقال: سأسمي طفلي قذاعة تيمناً بقذاعة الرجل المغوار.

---

[٨] – يلاحظ النقد الشديد لهيمنة الأباء على الأبناء كما كانت عليه الحال في النصف الأول من القرن العشرين.

شعرت أن كوني ابناً لهما يساوي كوني عبداً لهما وأنهما نسيا تماماً محاولات الإجهاض المتعددة التي جرت ضدي في السابق، ونجوت منها بأعجوبة، لقد تضايقت كثيراً فرفعت رأسي نحو السماء لأطلب العدالة من ربي ألا يدخلني في تجربة وأن يلهمني الصبر وينجني من الشر آمين، ولكني وأنا أرفع رأسي نحو السماء اصطدمت بكتل لحم بطن أمي المتراكمة فوقي فنكصت متخاذلاً.

- ١٠ -

قالت والدتي: عجيب أمر هذا الطفل!. إنه لا يتحرك في بطني طوال النهار ولا يهدأ في الليل.. أو لا ينام إلا في النهار!. صار يزعجني..

قال والدي: ألم أخبرك أن الخضر كلمني عنه وأراني إياه صبياً ذا بأس شديد.. آه ما أروعه من صبي سأعلمه التجارة.

قالت والدتي حانقة: لا أقبل .. لا أريده تاجراً .. لم تعد التجارة مربحة في هذه الأيام. يجب أن يدرس حتى يصبح طبيباً، فالأطباء محترمون ويربحون كثيراً.

استرسل والدي: سيكلفني تدريسه غالياً .. ونحن لا قدرة لنا على تكاليف الجامعة، وانتظاره عشرات السنين، سأعلمه التجارة في دكاني، وفي هذا توفير للمال، كما وأنه سيكون تحت أنظاري، فيتسنى لي أن ألقنه الأخلاق الحميدة وأصول الدين الحنيف. وإنني أفضل أن اعدمه على أن يكون شريراً أو فاسقاً في كبره.

أجابته والدتي: لقد حملته في بطني تسعة أشهر، وما ذلك لأجعل منه سماناً.

قاطعها مغتاظاً: لست سماناً.. أنا تاجر صغير وسيصير ابني تاجراً كبيراً.

غضبت أمي وأردفت قائلة بحماس ظاهر: سيتعلم عبير في المدارس ويذهب إلى الجامعة، وإذا لم يصبح طبيباً، فلا بأس في أن يكون محامياً في المستقبل أو مدرساً أو صيدلانياً أو مهندساً أو موظفاً حكومياً في السلك الدبلوماسي. أنا مستعدة لأبيع أساوري وخواتمي وكل ما سأرثه عن أهلي وعنك بعد عمر طويل وأنفقه على تدريس ابني. وعندما سيصبح شخصاً عظيماً كما أريد سيشار إلي بالبنان- أو من دون بنان - بين النسوة ويقال جاءت أم المحامي عبير أو أم الدكتور أو أم السفير.

قاطعها والدي حانقاً: أو أم أربعة وأربعين.. هه.. أما عن المحاماة فما أحلى أن يقال في السوق إن قذاعة..

قاطعته أمي مغضبة: اسمه عبير.. وأن يقال في السوق إن عبيراً قد رأى القاضي ومر بالقاضي وسلم القاضي عليه.

حوقل والدي وصرخ محتداً: أن يقال في السوق إن قذاعة ابن الشيخ صالح..

قاطعته أمي ثانية وصرخت متحدية وكانت متأكدة من إحجام زوجها عن ضربها وهي حامل: إن عبيراً ابن الشيخ صالح وزوجته فاطمة.

كاد والدي ينفجر غيظاً من جدل والدتي المستمر وكان قد احتقن وجهه بشدة فأخذ يصيح عالياً: إن قذاعة ابن الشيخ صالح قد ربح دعوى جنائية، ولكنه برأ قاتلاً ودافع عنه زوراً وبهتاناً، أو يقال إنه قبض رشوة أو دفعها مما يؤخذ على كل محام أما عن الهندسة فلا افهم فيها شيئاً ولا أحب الأمور التي أجهلها فلدينا التّلّي أبو عدنان شخص متدين وطيب القلب ويبني البيوت منذ خمسين عاماً فماذا يفعل شاب مثل قذاعة أمام شهرة التلّي وأخلاقه الحميدة؟. وأما عن الطب، فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا والطعام أصل الداء والحمية رأس الدواء والأعمار بيد الله ومن جاء أجله فليس للطب أن يقدم في عمره ساعة أو يؤخر ساعة. ولا أريد عبيراً - لعن الله هذا الاسم ما أقربه إلى اسم خنثى- ولا أريد قذاعة إلا تاجراً.. هل فهمت؟.

بدأت المشاحنة بينهما خفيفة، ثم اشتدت حدتها، فازدادت وطأة الألفاظ الغليظة المستعملة في الجدل من الطرفين، مما أدى إلى صدام واضح، نسي كلاهما فيه احترام رفيقه، وأورد في حقه من العبارات ما أحزن والدتي وجعلها تغادر الغرفة هاربة من وجه والدي المشاكس العنيف إلى غرفة النوم حيث اضطجعت على السرير وانخرطت في البكاء، ولا أدري أكانت تبكي إحساسها المرهف كأنثى أهينت أو أنها تبكي كأم ضاع مستقبل ابنها نتيجة المشاحنة، أو أن كل هذه الدموع من أجل غرورها الذي لن يتاح له الظهور في ثرثرة الاستقبالات النسائية.

وكدت أنسجم مع والدتي وأنخرط معها في البكاء، ولكنـــي خفت علـى مسكني من الاستسقاء، لأنني لم أولد بعد، وبناء على ذلك لم يضع مستقبلي تماماً مائة بالمائة بل ما يزال لدي مجال واسع للتفكير في المستقبل الذي يمكن تداركه عند ولادتي بتقييم جديد للأمور، فضحكت بدلاً من البكاء.

أما أبي فقد وقف خارج عتبة غرفة النوم وراح يدور فـــي مكانـه، وكـان يـردد طوال الوقت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان محتاراً بين مصالحة والدتي وإعطائها وعداً بحرية اختيار مستقبل ابنهـا وبين إبقاء سوء التفاهم على أشده والنوم خارج الغرفة علـى مقعد غـير مريـح.. ظـل محتاراً فإما أن يدعني أتعلم الإلحاد وتخرصات العلم أو ينام نوماً قاسـياً. ثـم نظـر مـن شق الباب فشاهد والدتي ممددة دون ترتيب وضعها ولذا كـانت أطراف ثوبهـا حاسـرة عن فخذيها، وهل كان ذلك ذكاء منها في تلك اللحظة أو أن الأمر يأتي مع حواء صدفة محض أو كيد شيطان؟. لقد بان باختصار لحمها الطري البض فـأغمض والـدي عينيـه ثم عاد يحدق بشراهة أكثر.

صارت أمي تجهش، ولما أحست به يدفع الباب ويطل برأسه، رفعـت عقيرتهـا بنحيب متزايد وتحركت فانشمر ثوبها عن وسطها وزاد تفجعها عن ذي قبل.

دخل والدي الغرفة، وتملكته حيرة مـن نـوع جديـد، فربـت بيـده علـى ظهرهـا فبقيت ممددة ولكنها التفتت، فربت على بطنها فصرخت من الداخل: من الطارق؟.

بدا لي أنه لم يسمع صوتي لأنني لم أتلق جواباً، فعذرتـه آنئـذ لانهماكـه التـام بمصالحة أمي.. وقد تصالحا ولعنت الساعة التي تم فيها ذلك الخصام المشؤوم.

❁❁❁

ما كنت أملك تقويماً ولا ورقة ولا قلماً حتى أضبط مرور الأيام وأحسب موعـد قدومي إلى الحياة، ولذا وجدت نفسي أمام مشكلة عويصة، فكيف يتسنى لـي أن أحـدد موعد نزولي فوق اليابسة.

حسبت أمي الشهر، وكنت أسمعها تردد قائلة " هذا شهري " ولكن حساب الشهر وحده لا يكفي ويلزمني معرفة اليوم على وجه الدقة أيضاً. لأنني أخشى إذا استعجلت والدتي في ولادتها أن أخرج من رحمها طفلاً فجاً ينقصه نضج قليل ليكتمل.

كانت مشكلة عويصة حقاً، فطالما سمعت والدتي تتحدث عن أمهات رزقن أطفالاً قبل النضوج ففقدنهم سريعاً. وأما أن أطيل المكث مدة زائدة فهي غلطة غير مستملحة من قبلي، وقد تعرض حياة أمي للخطر، ولا أريد أن أفتتح مستقبل حياتي باللعنات منذ طفولتي فكفاني ما نلته خلال تسعة أشهر.

ليس بطن والدتي فندقاً مريحاً ولا مصيفاً ذا هواء معتدل، كانت الحرارة تتراوح بين السابعة والثلاثين والثامنة والثلاثين درجة مئوية. وكنت أغرق في عرقي وفي سوائل أخرى، فكانت الإقامة نفسها غير مستحبة لي أيضاً، ولاسيما أنني غدوت كبير الحجم. وضاق البطن عن بحبوحة استيعابي.

فقدت الراحة وقت الطعام وفي الجلوس والنوم، وأصبحت مقيداً بضغط عباءة من اللحم تمنع حركتي وتحد مد يدي ورجلي، وكان الاستلقاء بعد كل طعام هوايتي المفضلة في السابق حين كان حجمي ضئيلاً ولكنه الآن أمر بات مستحيلاً تماماً.

جزمت أن أي انتظار في الرحم بعد الآن، سيضر والدتي وقد يلحق بي الأذى فيجب أن أنهي إقامتي في بطنها وأودع منزلي الأول إلى غير لقاء فهو المنزل الوحيد الذي يظل الإنسان يحن إليه أبداً دون أن يستطيع العودة إليه مرة ثانية، وفي هذا المنزل قال الشاعر: كم من منزل يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل.

ودعت الدفء واللزوجة والنعومة.. وبدأت أتفقد أجزائي قبل الهبوط كما يتفقد المظلي وسائله، ولعل هبوطي أصعب من هبوطه فأنا الآخر قد لا أصل سالماً وقد أجد في انتظاري من العناء فوقما يجد المظلي في انتظاره.

تحققت من سلامة أعضائي وكانت وحدها وسيلتي في الدفاع عن نفسي إزاء عقبات ذلك العالم المجهول، فما كان أشبهني بالذي يرسل إلى الفضاء ، إنه لا يدري

كيف يكون نسق الحياة في الكواكب، ولا يدري إن كان ما يملكه من إمكانات القلب والرئة أو قدرة عقله ستفيده أو أنها عاجزة أو ناقصة في ذلك العالم العجيب الجديد.

تحسست صدري فتأكدت من وجود قلب لي ولو أنه كان صغيراً، لكنه قلب على كل حال، وقد سمعت خفقانه ناعماً لم تتعبه تجربة الحياة بعد، فلم يخدشه حقد ولا بغض فكانت ضرباته موزونة رتيبة بدون نشاز، تتكرر في أدوار متماثلة. ثم تلمست بطني فشعرت بوجود أمعاء قصيرة نظيفة، فقدرت أنها ستطول مع الزمن وخاصة بعدما تتدرب على تناول الكُبَّة والمحاشي، وكل هذه المأكولات مواد مغذية وتحتوي على كميات كبيرة من الفيتامينات - والحمد لله -. ثم انتقلت يدي إلى رأسي، حيث تأكدت من وجود شيء من الدماغ، وكانت عظام الرأس طرية لم تقس كثيراً بعد وهو أمر هين لا يهم كثيراً لأن نشر عظام رأسي في ضوء الشمس مدة يومين يكفي لأن يجعل رأسي صلباً وأصلب على صغره وحداثة سني من الرؤوس الكبيرة فالعناد مرض متفاقم من جيل إلى جيل.

قررت الهبوط سريعاً بعد النتائج المشجعة التي وثقت من حالتها، فاقتربت من فوهة العبور من منفذ الرحم، وكان عليَّ أن أجتاز قناة ضيقة وطويلة، ولم يكن فيها من وسيلة تساعدني على التمسك والمضي متريثاً، وإنما هي قناة زلاّقة تحتاج إلى جرأة في الوثبِ والزلَق لاجتيازها من الداخل إلى الخارج دفعة واحدة.

بدا لي الأمر رهيباً، ألم تكن وثبتي الأولى؟. وأخذت أحدق في دهليز القناة الضيق المعتم الطويل، وأورثني التحديق دواراً مخيفاً فاشتد جبني، فأدرت وجهي لأستجمع شجاعتي وأتحضر لقفزة جريئة تضعني خارج رحم أميّ، ولكني تذكرت كلاماً سمعته عن ناس لم ينقلبوا خلال قفزهم فحاولت القدمان الخروج قبل الرأس حتى صار إخراجهم قطعة واحدة من رابع المستحيلات فخانتني شجاعتي ثانية.

كيف العمل لأجنب أمي مغبة عملية جراحية، وأنقذ نفسي من التقطيع بمبضع الطبيب الجاهز للخدمة دائماً. إنني لا أريد بعد الذي كابدته وكابده سواي أن أخرج نتفاً

من اللحم لا تصلح حتى لإطعام قطة جائعة.

طال الأمر وسمعت صراخ أمي يصم الآذان وهي تردد: آه ..ما أصعب الطلق.

ثم تدمع عيناها وتمسك ثيابها بين أسنانها وتشد بقوة وتئن أنيناً محزناً وهي تهمس بين الفينة والفينة: يا حبيبي يا ولدي ..انزل يا ولدي.. انزل يا عبير.

وكان والدي يسمع كلمة عبير ولا يجرأ على أن ينبس ببنت شفة، وكان منظره قريباً من هيئة إنسان ضبط في الخزي والعار أليس الواقعة واضحة تشير إليه على أنه الفاعل عن سابق تصور وتصميم. تساءلت: هل كل الأطفال جبناء مثلي يترددون لحظة الخروج إلى العالم..أم أنني وحيد في الجبن.

جعلني هذا التساؤل أتماسك ومن التساؤل ما يقتع، استعدت رباطة جأشي وزويت ما بين عيني وقطبت جبيني ونفخت أوداجي كديك رومي، ثم مددت قدمي كخطوة أولى في طريق الوثبة الكبرى. ولكني لاحظت أمراً رهيباً أرعبني رعباً بالغاً فعدت إلى التعلق بالرحم وكان نصفي قد سقط في القناة ورحت أجذب النصف الساقط رويداً رويداً لأعود إلى وضعي السابق.

كان لي أربع أصابع في قدمي، والخامس في ابتداء ظهورها فهي نبتة صغيرة كبرعم الفولة عندما يقشر قميصها، فقدرت لزوم التريث يوماً حتى تكتمل إصبعي.

قالت أمي: ليتني أتأخر في ولادتي حتى الصباح، لأن أمي بعيدة عني وليست أم إبراهيم في منزلها.

قال والدي: أرجو ذلك..ولكن الليل طويل وأتاك الطلق قبل ما أزرع لك الشجرة فأنا عازم على جلب جذع نخلة لتساقط عليك كلما هززتها رطباً جنياً.

قالت له: لقد خف الطلق والحمد لله.. ولا أجد حاجة كي تنادي مخلوقاً، ولاسيما أنه الطلق الأول فهو تباشير الولادة ليس أكثر.

وكنت قد سكنت في الرحم منتظراً اكتمال أصابع رجليَّ العشر.

ما كادت تشرق شمس الغد حتى غص منزلنا بجمع غفير من الناس، كان بينهم القريب والبعيد على السواء فأرسلت عائلة والدي ممثلين عنها، وقدم من طرف أمي جدتي وخالتي وحشرت الجارة نفسها بين الوفود و قريبة لوالدة ابن عم أبي.

وصلت الداية أم إبراهيم فقوبلت بما يليق بمقامها من الحفاوة البالغة، وقد أتت مصطحبة ابنتها، فتصدرتا المجلس قرب السرير. وراحت الداية العالمة توزع أوامرها التي لا تنتهي كلما أحرج مركزها بسؤال عويص تجهل جوابه كأنها قائد مغفل أو أستاذ جاهل. وما كان شيء في هيئتها ينبي عن كونها داية ولذا كانت مضطرة لتعلم الوافدين عن شخصها حال قدوم كل غريب، أن تنحني وتنظر بين ساقي أمي محاولة أن تطل عليَّ. ولو كنت جاهلاً مهنتها لظننت أنها تلاعبني.

أتى هؤلاء كلهم لاستقبالي، ولم استغرب كثرتهم؟.. ألست قذاعة الشاعر المغوار والرجل العظيم الذي تتلهف الحارة كلها لمشاهدته إذا لم نقل أن الأمة تنتظره ليقيلها من عسرتها. ألست ولي عهد السمان الشيخ صالح وزوجته فاطمة. ألست الابن البكر؟..لكن والدي نسي في هذا الاحتشاد أن يجلب جذع النخلة، ولذا قررت أن أخاصمه وألا أكلمه طالما أكون في المهد صبياً[٩].

تمت الاستعدادات، فالماء الساخن جاهز في الطبق النحاسي الكبير والصابون المطيب حاضر قرب الطبق، والمناشف وثياب مطرزة موجودة فوق طرف السرير وفي متناول كل الأيدي فيما عدا يدي.

اقتربت هذا اليوم من فوهة الرحم بجرأة عز نصيرها وقفزت فاندفع رأسي من الفوهة سريعاً وشاهدتني الداية ومسكتني، وخطر لي أن ألاعبها قليلاً لأكشف غرورها وعدم درايتها، بأن أصلب جسمي ليستعصي عليها إخراجي من الفوهتين فوهة الرحم وفوهة الفرج، ولكني سرعان ما عدلت عن هذه الفكرة لأنها ستسبب آلاما لا تطاق

---

[٩] – اقتباس المؤلف واضح من ولادة المسيح الذي أخذت أمه بجذع النخلة، وكلم الناس وهو صبي في المهد.

لوالدتي وغيظاً لبقاء عورتها شبه مكشوفة وقتاً مديداً لكل ناظرة.

أرخيت عضلاتي بعد الوثبةِ، فزلق قسم من جسمي وصار خارج بطن أمي واصطدم رأسي بيد الداية الصلبة الخشنة فكششت.. ولكن اليد الخشنة أطبقت على يافوخي الطري وجذبتني بشدة فولدتني أمي في دمشق التي صارت مسقط رأسي حسبما يهتم المؤرخون.

صدمني تيار بارد من الهواء فاقشعر بدني ولاحظت أن الطقس مختلف كثيراً عن الأحوال الجوية التي كانت في الداخل، وفتحت عينيَّ بصعوبة فرأيت وجه الداية أم إبراهيم وكان مخيفاً يشبه وجه قرد غير مروض، فلم أتمالك نفسي من الفزع، فأخذت أرتعش ولفت رقبتي يميناً وشمالاً وكانت عيون كثيرة تحدق فيَّ.

خفت من الداية ولم يهب أحد لنجدتي، فحاولت التملص من بين أصابعها القاسية، والرجوع لو أمكنني إلى المطرح الذي فرطت فيه، والذي ظللت أحن إليه، فأمعنت الداية في تطويقي فصرخت من الألم الذي سببته لي وناديت: دعيني..دعيني ..أفضل العودة حيث كنت..لا أريد أن أولد .. لا أريد.

بدا صراخي مستهجناً في سكون الغرفة الذي كان يخيم على الحضور، في انتظار خلاص أمي وقيامها بالسلامة، فضحكن كلهن وصفقن وسمعت أصواتاً تصيح: صبي.. صبي..

بكيت من الفزع والألم فأمعنَّ في ضحكهنَّ، وهتف الجمهور الآخر المحتشد خارج الغرف، وأصر على رؤيتي وكرر الهتاف مراراً وكأني كنت على حق الشاعر المنتظر. حاولت أن افهمهنَّ أنني لا ألقي قصيدة إنما كنت أبكي من الألم فزدت صراخي فازداد صخب الجمهور وتصفيقه. وبذلك وضحت المأساة في نظري وعرفت الحقيقة، علمت أن استمراري في الحياة أمر صعب وشاق إذا عولت في المستقبل على فهم الآخرين.

مدت الداية يدها الثانية بقسوة وبدأت تقطع حبل الود الذي كان بيني وبين

والدتي. آلمني قطع الخلاص كثيراً وكانت كلما أوغلت في قطعه أنتقل إلى حالات من اللاشعور شبيهة بالإغماء وأفقد قسطاً من مقدرتي على الفهم والملاحظة والإدراك.

اشتد الظلام تدرجاً حولي واختفت المشاهد متتابعة واختلطت الألوان وأصبح سمعي طنيناً متشابهاً. كان لي إدراك كامل عندما كنت في بطن أمي يحصل عن طريق حواسها ودماغها ولعله مستحيل بعدما يصل النصل إلى حافة حبل الصرة، فما كنت مقبلاً عليه غير سار أبداً فسأغدو مولوداً حديث العهد يرى ويسمع ويحس ولكنه لا يميز بل عليه أن يستخدم ذاكرته عند مجابهة كل أمر ليعود إلى الإدراك الذي كان لأمه ويزيد عليه.

نظرت من خلال أهدابي المبللة وقد آلمني سائل شديد الحموضة كان قد قطر بين جفوني، وكان آخر ما شاهدته وجه والدتي الشاحب المتعب وشعرت بأنفاسها المتلاحقة وعينيها الغارقتين بالدموع والحنان ثم....

القسم الثاني

سيداتي آنساتي سادتي..

استمعتم إلى فاصل قصير من مذكراتي، وكان فاصلاً مختلفاً عما يطلبه المستمعون لأن فيه أشياء لامني عليها المستمعون أنفسهم.. لقد عرفتم كيف تخلقت من نطفة!. وكيف أصبحت بعد جهد ومشقة ومعاناة بشراً سوياً!.. وأعود إليكم الآن بفاصل جديد يحوي ألماً أعمق مما رأيتم ولذا ستضحكون أعنف من ضحككم في السابق. ولا أتمنى إلا أن يكون هذا العود أحمدا..

- ١ -

بودي أن أحدثكم عن الفترة التي أعقبت ولادتي، ولكنها في الواقع ليست من عمر الإنسان بتاتاً. وكيف يمكن أن تكون من العمر وهو عاجز عن تذكر شيء من تفاصيلها.

لقد نسيتها.. وكيف أذكر طرفاً منها، وليس عندي من الحواس ما يكفي للتسجيل بصدق، وليس عندي من التفكير ما يقدر على التفسير بدقة. لقد تم إدراكي للوجود إدراكاً كاملاً، بعد أن اجتزت الخامسة من عمري، أتذكر فقط آلام الأسنان وآلام

غير الأسنان نتيجة الجهل والتهاون. وهل كان من واجبي يا ترى أن أميز بين الطيب والخبيث، والجيد والرديء فأتجنب كل رديء وخبيث وأقدم على الطيبات الجيدات؟. لاشك في أن والدتي كانت مسؤولة وكان والدي مسؤولاً أيضاً، وكلاهما تنقصه التجارب وفهم التجارب. إنني ولدهما الأول ولذا غدوت محط اختباراتهما في سبيل إتقان صنعة إنجاب الطفل وتربيته.

أحاول جهدي أن أبثكم من ماضيَّ لمحات خاطفة، عندما كانت أمي تقترب من سريري وهو أرجوحة صنعت خصيصاً لتشويه العمود الفقري وتهزه عامدة وترنم: نم يا بني .. نم يا حبيبي .. نم يا عبير.

ويصيح والدي: نم يا قذاعة ..نم يا عيني.. نم يا بني.

وكان عليَّ أن أنام، وإلا بقي هز الأرجوحة مستمراً ليلاً نهاراً حتى لو كنت مريضاً.. لكن الذي يحدث دائماً إثر الهز المتواصل أنني كنت أفقد الوعي فيظنني الوالدان نائماً مرتاحاً.

ثم إنني أهمس في آذانكم وأنتم عارفون هذه الحقيقة، وهن عارفات لتصرفهنَّ فأقول: إن إدراك الجنس أول ما ينضج عند الطفل ولذا فإنني أذكر كل الصور المتعلقة بهذا الإدراك بوضوح تام .. لا زلت أذكر الشفاه المطلية بأصابع "الروج " والأنامل الناعمة والقبلات الحارة التي كانت تنهال على خديَّ وفمي بمناسبة ومن دون مناسبة، فكم من عانس ضمتني إلى صدرها برغبة ولهفة؟ وكم هي كثيرة السواعد التي ضمتني وتناقلتني في كل استقبال، فكان يكفي أن تقول أي أنثى لأمي: ما أجمل طفلك!.

حتى أنتقل من حضن الوالدة إلى حضن القائلة، وكأن تلك العبارة بطاقة مرور لاحتضاني.. وكنَّ يرشفن القبلات من مبسمي رشفاً وكنت أحس انتفاض أجسادهنَّ قبل صراخي وانسياب دموعي فوق وجنتي.

لا أدري ما فعلت تلك الضمات في تركيبي الفيزيولوجي ولا ما تركت من أثر إلى اليوم، إنما لا يمكن إغفال قيمتها في أي حال، لقد كنَّ يروين ظمأهنَّ بواسطة طفل

الخامسة ويخلصن من كبتهنّ وحرمانهنّ على حساب حماسه البارد.

سيداتي آنساتي وحدكن..

ما كان قصدي إزعاجكنّ أبداً.. لكن الحقيقة تثب من فمي من دون " رتوش " حتى تقارب الوقاحة، وفي الواقع ليس من فارق بين الوقاحة والصراحة إلا كالفارق الذي بين قبلاتكنّ لطفل في الخامسة أو قبلاتكنّ لطفل اجتاز الخامسة والعشرين.

أشكر لكنّ عطفكنّ في السابق في سن مبكرة، وأحب أن ألفت نظركنّ إليّ فلا زلت بحاجة إلى عطفكنّ فلا تهملن صداقتي لأن الفراغ الذي أعاني منه بشع جداً ويخلق في نفسي إحساساً واضحاً باليأس الشديد والقنوت والمضض.

إنني الآن في أمس الحاجة إلى التعرف بواحدة منكنّ ومصادقتها لأشعر بوجودي وإنسانيتي، لتعيد إلى نفسي ثقتها في مقدرتها، إنني بمفردي لا أعتبر إنساناً إنني فقط شق نصفيٌّ من إنسان يبحث عن شقه الآخر، وإلا هل من المعقول أن تتجلى الحقيقة في صورتين؟.. فليس الرجل إنساناً وليست المرأة إنساناً، إن شكل الإنسان التام " رجل وامرأة " لأن هذا هو الشكل الهندسي المتطابق الذي يمكن أن يختصر حقيقة الوجود بدون ازدواج فلا تقوم صورتان لحقيقة واحدة.

لكن الفراغ المهلك وحده يلاحقني أينما كان، وألعن في سري ذلك الفراغ الذي أخشى من أن يعرف به ايزنهاور وعندئذ تصبح مصيبتي مزدوجة، فلا يكفي أنني سافقد الغزال وإنما سأكون مرغماً على استبداله، فطالما استبد الهوس الشديد عند ايزنهاوز لملء كل فراغ.

هذا ما أذكره في حداثة سني، كبتكنّ بشدة لعواطفكنّ وأحاسيسكنّ ثم تفريغ الكبت على حساب من كان في مثل سني من الأطفال، فما تكتفي واحدتكنّ بتقبيل الوجنات أو الجبين بل الثغر وتعصر الولد المسكين بين ذراعيها طالبة منه رعشة الجسد حتى لو كادت أن تكتم أنفاسه بالقبلات المتتابعة وبكى وصاح وذرف الدموع، فتعوضه بقطعة من الحلوى وهي متأكدة من كتمه السر خوفاً من تفريغ متوقع.

- ٢ -

أيتها السيدات والأوانس أيها السادة..

هل وقف أحدكم أمام باب المدرسة ينتظر تسجيل اسمه في عداد الطلاب؟. إنني لا أعني الجامعة ولا المدرسة الثانوية، وإنما قصدت المدرسة الابتدائية في الصف الأول.. ذات التعليم الإلزامي لأطفال السابعة هل وقف أحدكم أمام أبوابها؟.

يقال على ذمة الرواة.. أن في كل دقيقة واحدة من وقت المعمل ذي أفران صهر المعادن، تخرج سيارة كاملة، ذات محرك وأربع عجلات ومصابيح أمامية وخلفية أيضاً، لكن وقوفنا تم بين يدي آذن المدرسة الذي لا يعرف إلا بوجود الأفران التي تخرج في كل دقيقة واحدة صينية مملوءة بما لذ وطاب. ولذا فقد طال انتظاري - ليس وحدي - مع عدد من الأطفال، وكان كل واحد منا يصطحب ولي أمره معه، فبقينا مدة تكفي لصنع قطارات برمتها في معامل يدوية.

لقد وقفنا طويلاً بين يدي الآذن .. وإنني أستغفر ربي العظيم ولا أعترض على خلقه نموذجاً من مثله، ولكني لا أدري ما المانع من رفع هذا المخلوق " فلقة محترمة " حتى يدوخ من الألم ويتعلم احترام عباد الله. فقد شتر وجهه في المنتظرين مراراً وأباح لنفسه أن يهين والدتي ورجالاً كباراً حتى أنه أخطأ مع منظف المداخن حين طلب مقابلة المدير وظنه من الذين أتوا مفضلين العلم لأطفالهم عن الجهل فوبخه كثيراً.

أؤكد لكم أنني أحسست كرهاً عميقاً لهذا البناء الذي أطلق عليه اسم مدرسة، أؤكد لكم أيضا أن وجه مدير المدرسة كان أكثر بشاشة من وجه ذلك الآذن القمطرير. فقد تقدم نحوي وسلم على والدتي وابتسم مراراً، ثم ربت على خدي وامتدح مخايل الذكاء البادية فيه حتى كدت أحسبه راهباً[١]، وليس مدير مدرسة.

كان المدير طيب القلب جداً وذا أخلاق عالية فلم يستعمل كلمة واحدة نابية،

---

[١]- إشارة إلى حادثة تارخية تتعلق بالراهب بحيرى حين امتدح مخايل محمد عليه الصلاة والسلام

بل كانت كل الكلمات التي استعملها وهو يرفض قبولي ويبدي أسفه لوالدتي لطيفة مهذبة، لقد قال : ليس لدينا شواغر في الصف الأول.. لو طلبت مني تسجيله في الصف الخامس لقبلته فوراً على مقعدين.

تصورت لو بكت أمي لمسح دموعها بمنديله، أو لم أقل لكم إنه طيب القلب جداً ؟. كان وجهه يفيض رقة وأحمد الله أن أمي لم تبك.

حملت سبع سنوات من العمر ومشيت خلف أمي انجر إثرها فوق الرصيف وكان صوت قبقابي يرن رنيناً مسموعاً بالطرق على بلاطه.

قال والدي مساءً وكان شامتاً: أخبرتك مراراً أن تسجيل الأولاد في المدارس أمر عسير لأنه بيد المتملقين للفرنسيين وهو يحتاج إلى صاحب نفوذ في الدولة. اعتمدي عليَّ أعلمه القراءة والكتابة والحساب في دكاني، وأعلمه أصول الدين الحنيف والتجارة فيصبح تاجراً ذا عمة وذا خلق حميد أو لا يكفي هذا يا بنة عمي فاطمة – رضي الله على فاطمة الزهراء –؟.

أجابته أمي ولم تسمع سوى جزء من حديثه: ويل للمستعمر لا يريد لأولادنا العلم والمعرفة أبداً.

انتبه والدي إلى ملاحظتها الذكية وفهم منها أهمية دخولي إلى المدرسة فبدا عليه الاهتمام وحين بكت أمي يائسة تقدم والدي ومسح عبراتها بكفه وتلفت يميناً وشمالاً وعندما تأكد من غيابي وكنت آنئذ جالساً في أعلى الدرج فلم يرني، انحنى ولثم ثغر أمي فسمعتها تقول له: ابعد عني .. ليس هذا وقت الغزل، ولا سيما أننا في صحن الدار فإذا لم ترنا الجارة من السطح شاهدنا عبير في وضع مشين.

قال والدي: استمعي .. سأعمل ما في وسعي لنيل بطاقة من آذن الوزير فهو عميلي ويستدين من دكاني دائماً ولن يرفض لي طلباً بسيطاً كهذا الطلب .

ابتسمت والدتي ودغدغت والدي في خصره وقالت: كنت أعلم أنك من أصحاب النفوذ، ولك علاقات طيبة مع علية القوم، ولهذا انتظرت منك أن تتدخل في الموضوع.

ندر عليَّ سأربط شريطتي هذه، وثوبي الممزق خرقاً لستي زينب إذا قبل عبير في المدرسة.

قال والدي: سيقبل قذاعة في المدرسة والآن هيا بنا إلى الغرفة.

لم أدر أن لآذن الوزير تلك السطوة في المدارس إلا عندما أبرزت أمي مكتوباً من يده وفي أسفله طبع خاتمه المدور وإلى جانبه عبارات بسملة وشكر وامتنان.

عرف آذن المدرسة مباشرة مصدر الكتاب عندما رأى الخاتم المشهور في أسفل الرسالة فانحنى لنا ذلك العبوس وابتسم مكشراً، وظهرت أسنانه كحب العزيز لكنها سوداء بشعة فتمنيت لو يعود إلى تجهمه فقد أرعبني أكثر من الأول.

- ٣ -

قبلت في الصف الأول، وابتدأت أكتسب العلم الجليل وابتدأت المصائب تتوالى دون إنذار مسبق.

داومت في الصف الأول، وكنت مصاباً بالضمور الجسدي كما أسلفت فكان صعباً عليَّ أن أرى اللوح أو الأستاذ إلا إذا جلست قريباً منه ، ولكني في الوقت ذاته لما كنت ابناً لسمان فقد استحال وضعي في المقعد الأول.. وكأننا نحن الأولاد نحمل ذات الشارات والرتب التي يحملها آباؤنا. فكان عليَّ أن آخذ التحية بصمت، وإن مكاني هو المقعد الأخير ولاسيما أن أستاذنا نفسه كان مرهف الحس وذا ذوق حسن فكيف ينضد أمثالي من (الكراكيب) أمامه وأمام الزوار في واجهة الصف؟.

لقد عذرته شخصياً على تلافيه المنظر المقذع.. أو ليست بشاعة تامة في أن أتصدَّر أمام الطلاب؟. أليست جريرتي أن حملت جسداً ضامراً وثوباً حائلاً لا لون له وأتيت إلى المدرسة لأتعلم؟. لو أن والدي سماناً في شارع الوجهاء لوجدنا ما يبرر الأمر أما وأنه سمان في الحارات القديمة فمن الضروري أن أوضع في مقعد منزو عن الأبصار.

جلست في مقعدي وكان المقعد مخلوعاً، فارتفع صرير المقعد الحاد، فتطاول الأستاذ برقبته وحدق في اتجاهي ، وما كنت بحاجة لأتقاصر خجلاً لأني حتى لو وقفت فوق المقعد فمن المحتمل ألا يلمحني.

حاولت أن أتحرك قليلاً لأرى الأستاذ أو اللوح فعاد المقعد المخلوع إلى الإنشاد وغنى سحبة موال تفوق سَحْبَ وديع الصافي وزقزق بمقطوعة تضرب طقطوقات صباح على عينها. ضحك الطلاب فاغتاظ الأستاذ كثيراً ونفخ أوداجه وهدد وتوعد ففزعت كثيراً وسكنت زهرة من حجر.

تأملت المقعد الخشبي الأصفر المخلوع يائساً وكادت عبرتي تنهمر من مقلتي ..فإما أن أجلس طوال الدرس كسجين في علبة أو أنني سأتعرض لشتائم الأستاذ وتهديده. طال الدرس وانتظرت رحمة الجرس بفارغ الصبر لأبدل من وضع رقبتي وأمد ساقي قليلاً إلى الأمام. تخشبت رقبتي لطول ما جمدتها عن الحركة وآلمتني ساقي وانتابها الخدر وراحت تدغدغني.

هتفت يائساً بحرقة: يا الله من هذا الوضع ومن المدرسة!..

أصبحت في حرج شديد وضيق صدر واختناق وضجر. وأعدت التدقيق في واقع مقعدي المخلوع، وكنت أتطلع إليه بذل و استسلام كمن يستدر عطفه ليصمت مرة واحدة.

مددت أصابعي لتلمس خشبه بحنو واستعطاف، ثم حاولت أن أتحرك ببطء فتبينت عزمه على الصراخ، وتبينت تصميمه على لفت انتباه الأستاذ. لكن صبري ما لبث أن نفد تماماً وغدوت في حالة من التوتر أشد من أن تتحملها أعصابي، فأعدت ساقي كيف ما اتفق وحركت ظهري وصرخ المقعد منادياً يستحث غضب الأستاذ.

ضحك التلاميذ وازور الأستاذ وصرخ بدوره محتداً فخيم الصمت قال: من منكم كان يلعب بالمقعد.

صمت تام خيم في الغرفة.

استرسل الأستاذ من جديد بلهجة أكثر حماساً: من منكم كان يلعب بالمقعد؟.. إنني أعرفه جيداً.. ليعترف من نفسه أو أنني سأعاقبه عقاباً شديداً.

علمت أنه يجهل الفاعل وإلا لكان عاقبني.. وكيف يشتبه فيَّ ولم يولني من اهتمامه لحظة خلال الدرس الطويل، لكني فضلت أن أبدأ حياة شريفة ولا سيما ليس ذنبي أن يكون مقعد الصف مخلوعاً. فوقفت وقلت متفائلاً: أنا يا أستاذ.

دوت عاصفة من الضحك بين التلاميذ ودوى صوت المسطرة على رأسي ثم دُفِعتُ بغلظة نحو الباب دون أن يترك لي مجالاً لشرح جلية الأمر.

رفعت يديَّ عقاباً صارماً فوق رأسي وكانت الدموع تسيل من عينيَّ غزيرة، وكانت في ذهني فكرة واحدة باقية من درس سابق: إن الصدق منجاة.

سألني الأستاذ: ما اسمك يا؟.

قلت له: لي اسمان، هل تريد الأول أم الثاني؟.

أضحك جوا بي التلاميذ، ثم تهامسوا فيما بينهم وحدثت ضجة شديدة في الصف، فخبط الأستاذ بيده على الطاولة وكان من نتيجة ذلك كله أن شدد ضربي بعصاه الغليظة على قفاي حتى كاد أن يغمى عليَّ.

سألني الأستاذ ثانية، وكانت عبراتي تنفر من مقلتيَّ وتنحدر على وجنتيَّ وأصبح صوتي والكلام مقطعاً مختلطاً مع نحيبي: ما اسمك يا..؟

أجبته صادقاً وبكل صراحة لأخلص من ورطتي: اسمي قذاعة.

ضحك التلاميذ من جديد وواصلت البكاء ، وظن الأستاذ أنني ما زلت أهزأ منه فواصل ضربي أعنف من ذي قبل.. وسألني مجدداً: ما اسمك يا حمار الحقل .. إنني أسألك عن اسمك؟.

تبينت أن اسم قذاعة، لم يعجبه أبداً لأنه عاجز عن لفظه فظنه تهكماً به. لعنت الساعة التي عثر والدي فيها على هذا الاسم في بلد تتشدق بتراثها ولكنها أبعد ما

تكون عن مراجعته، وأحسست بإهانة بالغة نفذت إلى صميمي فقررت أن أعانده فأجبته: ناديتني يا حمار الحقل، فلماذا تسألني عن اسمي.

ضج التلاميذ بالضحك بينما قبض الأستاذ على أذني بين أصابعه وفي كفه سلسلة مفاتيحه وراح يفرك السلسة على أذني بشدة، فاختلجت بين يديه.. جابهني بكل قوته ولكنه لم يستعمل تفكيره وكأنه يحسبني أسداً هصوراً أمامه وليس حسبما كنت صوصاً قميئاً، أعاد السؤال بعصبية مجنون: أجب ما اسمك؟.

أجبته من فرط ألمي مستسلماً: تناديني أمي باسم عبير.. وأما والدي فيناديني باسم قذاعة ألم أقل لك إن لي اسمين؟. وليس ذنبي أن أملك اسمين في آن واحد .. إن أبي وأمي مسؤولان عن هذا الالتباس.

توقفت أصابعه عن فرك أذني، وصمت حين أدرك خطأ قسوته في معاملتي، ولكن أين الإنسان الذي يقر بخطئه ويعوض الآخرين ولو بكلمة رقيقة، بابتسامة اعتذار، بحرف، بحركة أنملة؟. وضع كفه في ظهري ودفعني في اتجاه مقعدي بغلظة وقال مازحاً ليبدد السكون الذي خيم على الصف متعاطفاً مع مشكلتي: اجلس في مكانك يا منحوس .. أنت منحوس هل فهمت؟.

هززت رأسي وأجبته وما زلت أنتحب: أجل فهمت يا أستاذ.

ثم أضفت بيني وبين نفسي: أجل .. أنا منحوس جداً.

من يستطيع أن يرفع هذا اللقب من فم الطلاب؟. لقد لحقتني كلعنة اليهود طوال حياتي فلا يراني واحد منهم إلا ويناديني بأعلى صوته أينما كان: منحوس.. منحوس .. ماذا تفعل يا منحوس.

حسبت الحياة ستمحو هذه اللعنة ولكنني وجدت الناس أشد قسوة في المستقبل. لقد وجدتهم أقل حكمة وأكثر سخفاً من تلامذة المدارس الصغار، فلم يتبدل الحال ولم يختلف الأمر وبقي لقبي بينهم المنحوس لكنهم لاعتبارات العمر بعدما كبرت أضافوا كلمة " أفندي ".

حياكم الله...

أما كان أولى بكم أن تحتفظوا بالأفندية لأنفسكم لتمنحكم نوعاً من الاحترام فلا تفتقروا أبداً إليه...

أمن العدل أن توزعوا الأفندية[٢] دون مناسبة وتنسوا أنفسكم من لقب واحد مشفوع بأفندي ..؟ لا تحزنوا فلم أكن أقل منكم كرماً يوماً ..أيتها الأفنديات والأفاند أيها الأفاندة.

- ٤ -

صار أستاذنا في الصف الثالث خيرت أفندي. وكان أقصر أستاذ عرفه اللوح الخشبي في كل العهود، ولهذا لم يكن يقدر على صفع أحد من الطلاب سواي فصرت مكسرة العصا كما يقول الأقدمون.

رضيت كارهاً آلام الضرب، ثم أقنعت نفسي أن تقر عيناً بنصيبها أولم يكن في ضربي عبرة وعظة للآخرين؟. فلعلهم يعتبرون، وأي مانع يمنع خدي من أن يصبح محطاً لكف الأستاذ خيرت طالما أن الأستاذ يربي جيلاً صاعداً على حسابي.

استطاع الأستاذ خيرت على قصره وكان مشهوراً بين زملائه بالقزم أن يحفظ النظام في الصف للمرة الأولى في تاريخ وظيفته، فنال ترقية أوصى بها المفتش على جهوده الجبارة التي بذلها في التوجيه وأصول التربية وأصبح مضرب الأمثال أمام الأساتذة الآخرين ومد راء المدارس على الرغم من قصره.

تحملت اللطم منه أمداً طويلاً، وكان الأمل بالنجاح يحدوني طوال السنة الدراسية، إذ لم يخطر في خلدي أن الأستاذ القزم بعدما نال الترقية والنجاح والشهرة في هذا العام أصبح طامعاً في ترقية ثانية وفي نجاح أعم وشهرة أوسع في العام القادم، ولذا قر رأيه على الاحتفاظ بي إلى جانبه فهو ينظر إلى وجودي معه كضرورة

---

[٢] - هذا النقد موجه للمجتمع الذي صار يستعمل لقب الأفندي للسخرية من العمال وأصحاب الوظائف المتدنية.

استراتيجية ملحة، وما أغباه إن هو تنازل عني إلى أستاذ آخر، مهما سَكَتُّ عن لطمه ومهما اجتهدت، فأنا لازم للمصلحة العامة وكفى، ولن يؤنبه ضميره على قراره.

هل في الوجود أب يقتنع أن ابنه مجتهد لكنه سقط في الامتحان بسبب نزوة أستاذ عابرة؟. هل يقتنع أن سبب السقوط رغبة الأستاذ في إبقاء ابنه إلى جانبه ليستفيد من صمته في معالجة الآخرين؟. هل في الوجود من يقتنع بحدوث مثل ذلك.

وا أسفا على الحقيقة؟. لم يقتنع والدي أنني كنت مجتهداً وأن الأستاذ لم يكن نزيهاً فضربني أبي على رأسي بحذائه وصفعني على وجهي وأذني ولكمني على ظهري وصدري .. وكان يردد: أضعت مالنا وتعبنا ..يا بن الكلب ..حرام إطعامك لقمة واحدة يا كسلان.

انفردت مع نفسي وبكيت بدمع هتون وانتحبت بشدة وكان صوتي المختنق يطلب الرحمة والعدل والإنصاف فهل لمثل هذه الكلمات من وجود؟.. إن عقلي الصغير عاجز عن تقرير أمر كبير كهذا..

من يصدق أنني كنت أكتب وظائف الذين نجحوا بأجر أو عن صداقة؟ من يصدق أن صوتي نفسه كان يهمس بالجواب الصحيح في آذانهم عندما كانت تشتد الأزمة ولا من عارف لجواب.

طويت جراحي بين جنبي ونمت على الضنى مكسور الخاطر، لقد عولت أن ألُمَّ تخاذلي، وأترك للأفكار الكثيرة المضطربة في دماغي أن تستقر في شعوري الداخلي وتمد ذاكرتي بالتجارب، فقد كان إحساسي واضحاً بوعورة الطريق على الرغم من كون الطريق لم تزل في أولها.

قد لا تقع هذه المذكرات بين يدي أستاذي خيرت.. لكن رفقة لي سيعرفون الأستاذ عندما يطالعون هذه المذكرات التي عشنا سوية في حداثة سننا.. فيذكرون المنحوس.. وحتى الذين لم يعرفوا.. سيتصورون كيف كان التعليم في تلك الأيام.

سلاماً يا رفقة الصغر.. أينما تكونوا .. ومهما تكونوا؟.

سلاماً من منحوس لم يقدر أن ينساكم أبداً..

سلام عليكم .. وأنتم حمالون في سوق الخضار أو لصوص في السجون.

سلام عليكم.. وأنتم قضاة خلف منابر العدل، أو مهندسون أو محامون أو مدافعون عن الحدود.

سلام عليكم..حتى لو كنتم في القبور..

إنني لن أنساكم طوال عمري لأنني سأحمل هديتكم معي إلى يوم الحساب.

لقد أضحكتكم وكانت هذه الأحداث حقيقة تجري بينكم في الصف وكانت رؤوسكم صغيرة وفارغة... وطالما هززتم رؤوسكم وانحنيتم فوق منصة المقعد وكانت قلوبكم أفرغ من رؤوسكم آنذاك... وأرجو أن تضحكوا اليوم أيضاً وليست الأحداث سوى أشباح ذكريات تنتاب خيالكم كلما استعدتم طرفاً منها.. وأرجو أن تهزوا رؤوسكم كما كنتم تفعلون وأنتم ترددون: يالها من ذكريات طواها الزمان وهاهي الآن مكفنة بأوراق المنحوس؟ لقد كان مسكيناً.

– ٥ –

أضربت المدينة، وحدثت مظاهرات عنيفة، أدت إلى وقوع صدام عنيف بين المتظاهرين وقوى الاستعمار وكان المتظاهرون يرددون شعارات الحرية ويهتفون بحياة سوريا وسقوط فرنسا وكان من أبرز الشعارات " لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله – ودين محمد دين السيف – وعزي وبلادي سوريا الله يحميك سوريا – ومن فوق التل احْدِرْنَاهُمْ ستميّه ودي غول ويّاهم ".

هاجم المتظاهرون دوائر الحكومة كلها وجرت أعنف المعارك في ساحة المرجة حيث تنتصب وزارة الداخلية ومديرية الشرطة وبناء البلدية، كما قاموا بإغلاق المدارس كلها وذلك برشق نوافذها بالحجارة. ولما كان مقعدي في الخلف قريباً من النافذة فإن أول حجر أصاب الزجاج، قد حطم رأسي بعدما حطم زجاج النافذة وتطايرت شظايا البلور متناثرة فجرحت رقبتي أيضاً.

خرج الطلاب من المدرسة وانضم عدد منهم إلى المتظاهرين يهتف بسقوط فرنسة والاستعمار وسقوط أشياء أخرى تتغير حسب نسق المظاهرة. وأنشد بعضهم المقطوعة الرائعة.. يا ظلام السجن خيم، إننا نهوى الظلاما. وخرجت بدوري من الباب وكان جرحي ينزف الدم بغزارة، فشاهدني المدير والأستاذ وهما واقفان عند أول الحارة ويكاد صبرهما يفرغ من تلكؤ بعض الطلاب وتبينا إصابتي فنهراني بشدة وأعاداني إلى المدرسة ليضمدا جرحي البليغ وكانا يتميزان غيظاً.

قال المدير: أنت مصدر الشغب في المدرسة، لقد انصرف الطلاب كلهم وترانا مستعجلين لكنك طائش مستهتر متهور .. هيا اقترب.

اقتربت فزعاً ، وتمنيت آنئذ لو يبقي على جرحي فهو أهون على نفسي من آلام شتائمه وعذاب لواذع لسانه السليط الذي لم يهدأ طوال الوقت.. حتى حسبتهما مستعجِلَيْن من أجل الانضمام إلى المظاهرة، ولكنهما خيبا فألي عندما قصصت أثرهما متعمداً وتبين لي سبب عجليهما وكانت زيارة لبيت دخلاه وهما ينظران خلفهما بحذر.

وصلت المنزل متأخراً، فاستقبلتني أمي استقبالاً أكثر حرارة ..ولم تصدق ما رويته لها، ولا والدي أنني أصبت لكوني منزوياً في ركن الصف وهو المكان الذي قد يخطر للمرء اللجوء إليه والاحتماء فيه، وهنا تكمن المفارقة التي تنغص عليَّ عيشي، فقالت والدتي: ليتك وصلت محمولاً فأنت لم ترجع فوراً كأولاد الجيران بل سعيت مع المتظاهرين، ليت رأسك انشطر إلى نصفين لتعتبر وتعقل من نفسك.

أجبت والدتي: آمين.

وبقيت مغتاظة فاسترسلت قائلة: الله يعدمني إياك ..

فأجبتها يائساً: آمين.

وقالت بعد لحظة سكوت فقط: ابن الجيران أكبر منك بعشر سنوات ولم ينضم إلى المظاهرة، أتظن نفسك ستهزم الفرنسيين وأنت صوص لم تفقس بيضته عنه؟

كنت أتمنى لو جاءني خبرك أنك أصبت برصاص السنغال أومن جنود فرنسا لأستريح من مشاكلك.

خلفتني قابعاً وحيداً في ركن الغرفة بعد تمزيق كامل لإحساسي، تاركة إياي أردد دون نهاية آمين ..آمين..أو يشتهي طفل مثلي غير الموت؟. ولم يشدني أمل إلى الحياة، وأي أمل؟.. وما الذي يمكن أن يتغير؟.. إنني لم ألق حتى الحين لحظة سرور واحدة فكل اللحظات التي أمضيتها كانت نحساً نحساً.

فاجأني من قال أمامي: إن سن الطفولة أجمل سني الحياة. ولو تكلمت لقلت: إن سن الطفولة أرذل العمر.

كان عليَّ أن أجابه الأحداث وأنا فتى بإدراك كامل محسوب عليَّ وأن أملك قدرة على ضبط تصرفي من دون معرفة أو تجربة سابقة، فلم أكن أملك غير حدسي وغير عضلاتي اللينة القابلة للتمزق بسهولة؟. وليس في قربي من يرشدني؟. لم يكن لي غير عبراتي السريعة التحرر من غددها تخفف من توتر أعصابي وتغسل أدران نفسي من حقد يسيء إليها أول ما يسيء.

أحس الآن بعدما تخطيت مراحل الطفولة بحنين إليها.. آه لو تعود فما رأيت لعبة في واجهة مخزن أو بيد طفل إلا وتذكرت أنني لم أحصل على لعبة واحدة في حياتي طوال تلك السنوات التي قضيتها بين الجهل والحرمان. إنني لم أحطم لعبة أبداً لأنني لم أحصل عليها حتى ولو كانت من الورق المقوى تافهة سريعة العطب.

تنتابني رغبة أن ألعب بلعب الأطفال وكأني أريد أن أعوض ما فاتني في صغري ..لكن الإحساس لا يدوم إلا المدة الكافية لأن يخطر لي .. فمن العبث أن تبحث عن حب بريء لقلب امرأة تجاوزت سن اليأس.

- ٦ -

كانت حارتي طويلة وضيقة وملتوية وذات مدخل فخم مبني من الحجارة لتتكئ إليه البيوت المتداعية المبنية من الطين والخشب، ولم يكن في تلك البيوت من أثر

للإسمنت في حائط واحد ولذا فإننا لم نكن نخشى الانهيار الذي كان يحدث في الشتاء دائماً ولا يحدث إصابات أبداً.. لقد كان الطين يتساقط وحده فوق رؤوسنا قطعاً متناثرة بينما يبقى الخشب معلقاً في مكانه وحتى لو انهار عمود من الخشب في مرة فإن العمود يتفتت من الصدمة لطول ما نخر السوس في عضده.

كنا نخشى تهدم حائط من منتصف الحارة، فتتداعى في إثره كل الجدران المرتكزة عليه. لكن رحمة الله كانت تتدارك الحال فلا ينهار إلا الحائط الأخير، ويشترك آنئذ سكان الحارة بإقامته ثانية.

كان يجتاز الحارة نهر عريض، وكان النهر أعرض من زقاق الحارة نفسه، لكن القطط غير المدربة تقطعه بسهولة متنقلة بواسطة الأحجار الموزعة ضمنه، وكانت روائح النهر تصدم أنوف الزوار، أما السكان أنفسهم فقد اعتادوا رائحة النهر الكريهة فما كان يضايقهم أبداً إلا عندما يمتلئ النهر بالماء وتختفي روائحه البشعة.

كان يعزي الحارة في نهرها، كونه فرعاً من فروع بردى، وإنه لشرف عظيم ناله الأهالي بالسكن على ضفاف النهر الذي قيلت فيه مئات من القصائد ولحنت من أجله الأناشيد والأغاني ومن لم يصدق ليسأل مطرب بردى رفيق شكري والملحن مصطفى هلال كيف! بردى يصفق بالرحيق السلسل.

تمنيت أن يزورنا شاعر أو مطرب أو أديب لأعلمه عن الفرع الذي لم يكن لطوفانه موعد ولا لامتلائه أو لجفافه موعد، فمواعيده متوقفة على مقدار ما ينصب فيه من الحارات المجاورة، وقد حدث حريق بالقرب منه ففاض النهر وغرقت ضفتاه. وخاف السكان من غارة طيران مفاجئة قصفت دمشق بالقنابل ففاض النهر أيضاً.

بحثت في الخارطة مدققاً علني أعثر على أثر له فتبين لي أن حارتنا كلها لم تكتشف بعد[٣]. وهذا من حسن حظنا فقد نغدو بعد اكتشافها من سكان العالم الجديد[٤]..

---

[٣] – هذا النهر فرع من فروع تورا مخصص لأرواء البساتين الممتدة من الروضة حتى القصاع، وكانت توجد حارة ملاصقة له تمتد من عرنوس حتى أول شارع بغداد كتوسع للبناء متفرع عن جادة الصالحية الرئيسية.

وأؤكد أن الأمر آنئذ لن يخلو من ثروات لا بأس بها، ولا أقصد أن تلك الثروات ستفوق في النوع ما وجد مدفوناً في مناجم العالم الجديد.. ولكنها ستبقى في الحجم أعظم بكثير .. فقد كنا نعثر بعد حفريات البلدية على قطع من أباريق مكسورة أو كَباجي ومفردها كُبْجاية قد علاها الصدأ وأشياء شبيهة بمعروضات المتحف، ولا ينقصها سوى اللجام البلوري المزخرف والقاعدة المخملية حتى يشتريها ألف سائح أمريكي بارع الذكاء فأكثرها مطرز أو مقرنص أو معفش.

والطريف في كل عام أن البلدية بعدما تنظف النهر من الأوساخ وتضعها جانباً في الزقاق، تنسى نقلها، فنجتاز الحارة ذهاباً وإياباً فوق الأوساخ مجبرين حتى تجف، ومتى جفت يبدأ الأولاد بإعادتها تدريجياً إلى النهر من خلال لعبهم، ثم تجرف الأمطار ما تبقى منها على الضفة ويعود النهر إلى حاله الأول قبل شهر واحد.. ثم تأتي البلدية في العام الثاني ويعود الأولاد إلى اللعب ويعود النهر ..أليست لعبة جميلة تشترك فيها الحكومة الراشدة والأولاد القصر والنهر المنهك.. أو لا تشبه لعبة أطواق الهيلاهوب؟.. وماذا يمنع أن تكون للأوساخ دورة في الطبيعة ؟ إن للمياه دورة كاملة وكذلك لغاز الفحم وغاز مولد الحموضة، وكل هذه الدورات ثابتة ومعروفة لدى العلماء وتدرس في مختلف العلوم ولا بأس من إضافة دورة الأوساخ في حارتنا، فهي لم تكتشف بعد وليس أجدر منها أن تضاف إلى كتاب الصحة العامة.

❁❁❁

كنت أقطن في بيت يقوم في منتصف الحارة - ولا فخر - وكان يقطن معي في نفس المنزل أبي وأمي. وكان يسكن مقابل دارنا شيخ مسن عنده أربعة أولاد، كان أكبرهم شاب يعمل في عمان ونادراً ما يحضر إلى دمشق. ثم بنتان متزوجتان وتسكنان مع زوجيهما في نفس الدار. أما الرابعة فكانت فتاة صغيرة لكنها تكبرني بثلاث سنوات وكانت جميلة وخجولة وعشيقتي في نفس الوقت. ولم تكن تذهب إلى

المدرسة فقد أبى والدها أن يرسلها بغية طلب العلم خوفاً عليها من عيون الشباب وهو أمر مخجل وألف مخجل ..أليس مخجلاً أن تـدرج أربـع مـرات فـوق الرصيـف تلاحقهـا العيون خلال يوم واحد؟.. لا شك في أنه أمر مخجل لأنها حين كانت تدرج أمـامي بيـن عتبة الغرفة والسرير لم يكن يراها سواي.

كان سطح منزلنا يجـاور سـطح منزلهـا، أو بـالأحرى كـان السـطحان يعتمـدان على حائط واحد، فكنا نسمع صراخ الجيران واضحاً ونسمع أخبارهم الخاصة وآراءهـم فيَّ وفي والدي ووالدتي واضحة أيضاً. وما كنا نقدر أنهم كـانوا يسـتمعون إلـى آرائنـا في بناتهم وفيهم حين ننسى أنفسنا ونسترسل في الكلام الناقد، فكان الصلح بين أهلـي وأهلها معدوماً تماماً فلم يدم متواصلاً أكثر من شهر واحد بينما الخصام يدوم مـا بقـي من السنة.

شعرت أن من واجبي أن أنضم إلى طـرف عـائلتي ولـو أننـي لسـت طرفـاً فـي النزاع الدائر بينهم. فقد كان من الوطنية أن أهينهم وأحتقرهم وأسبب لهم الضرر بكـل الوسائل الشيطانية التي ترضي أمي وأبي وتجلب السـرور إلـى نفسـيهما. وكـان الأمـر نفسه مفروضاً على الآنسة المهذبة والبنت المصونة التي لا تذهب إلى المدرسة كريمة جارنا المتعصب.

اعتدت أن أمد لساني في وجهها خلال أيام الخصـام وأن ألعب أصـابعي كلمـا مررت أمام النـافذة ذهاباً وإيابـاً، واعتـادت " مهـا " - وهـذا اسـمها - أن تصـب المـاء على رأسي من نافذة غرفتها، فأسرع راكضاً خشية الابتلال بالماء الذي لم يكـن نظيفـاً في يوم ما.

وقفت على السطح ذات يـوم وفـي كفـي مـن الـتراب مـا يكفـي لتلطيـخ غسـيل الحارة كله. وكنت مصمماً على هذه النيـة السـيئة. ولمـاذا لا أسـبب لهـم الضـرر؟ أمـا كانت تسر أمي وتبتسم بعد كل إساءة إليهم؟. إذن لأتشجع ولأرم ما في كفي على ذلـك الغسيل الأبيض النظيف.

شاهدتني مها وكانت قرب الدرج جالسة تحبك كنزة صوف، فعرفت غرضي البشع فتطلعت نحوي مستعطفة وكانت تنظر بعينيها الزرقاوين الصافيتين صفاء قلبينا دون غضب الأهل، ولم تلبث أن هتفت: تعال يا عبير ..انزل من سطح منزلك إلى سطح منزلي.

بقيت جامداً في مكاني وكانت تؤخرني الرهبة عن الهبوط إلى بيت أعدائي وأنا أعزل فرفعت يدي مهدداً ثانية بالتراب، فقالت: حرام يا عبير. لقد تعبت أمي بغسله طوال النهار وستضربني إذا شاهدته ملوثاً.. هل يطاوعك قلبك أن تلوث الغسيل النظيف ولا سيما أن فيه قميصي الأحمر الذي يعجبك وشلحتي الزهر.. أبعد التراب من يدك وتعال معي أطعمك مربى المشمش.

نظرت إليها غاضباً وقلت: سأرمي التراب على ثياب أمك وأبيك ولن أدع ذرة تراب تقع على ثيابك.

سألتني وكنت منتفخ الأوداج كشمشون الأقزام: ألا تريد أن تأكل مربى المشمش.

سألتها مستفسراً: أ لا يوجد أحد في المنزل.

قالت: أقسم لك بعينيَّ، لا يوجد أحد في المنزل سواي، لقد ذهبوا جميعهم.

انتقلت إلى سطح منزلها واقتربت من مكانها دون أن أرمي التراب من يدي وجابهتها مهدداً: إياك أنِ تخدعيني .. لن أغفر لك مكرك مدى الحياة.. وسأمزق ثوبك في العيد.

حدقت في وجهي وسألتني بحنان: هل تكرهني يا عبير.

شعرت بخجل من سؤالها، فأغضيت حياءً وتركت التراب ينساب من بين أصابعي إلى أرض السطح وقلت: كلا ..إنما العكس هو الصحيح.. إنني أتمنى أن ألعب معك في الحارة.

ابتسمت وقالت: إنني مثلك ..أرغب في اللعب معك وأكـره أن ألعب مـع صبـي آخر لأنك لطيف في معاشرتك تختلف عن بقية الصبيان.

جلسنا وقتاً قصيراً عند نهايـة الـدرج الخشـبي الصـاعد فـي السـطح.. وكـانت تحدثني عن أعمالها في البيت طوال اليوم، ثم تحدثنـا سـوية عـن الأعيـاد وعـن الأشياء الحلوة التي يشتهيها كلانا.

قاطعتني فجأة: إنني لم أقدم لك المربى الذي وعدتك به.. هل تحب المربى ؟.

هززت رأسي موافقاً فأخذتني من يدي وهبطنا الدرج إلى غرفـة أبويهـا وكـان فيها سرير نحاسي عريض، فأكلنـا هنـاك المربـى سـوية، وكـانت تحـاول أن ترضينـي فصارت تدفع اللقمة في فمي بيدها الصغيرة الناعمة وصرت أحاول أن أعض أصابعهـا أو طرف رسغها أو السوار الأزرق الجميل حول معصمها.

مسحت أصابعي وأصابعها وفمي وفمها بمنديل مبلل وضعته جانباً، ثم اسـتلقت على السرير، فلفت رأسي بعيداً إذ بان كثير مـن لحمهـا الغض، وقلـت: عيـب يـا مهـا غطي فخذك.

ابتسمت وأجابت: أمي تتعرى أمام أبي، ألست رجلاً مثل أبـي يـا عبير.. تعـال نقلدهما كأننا زوج وزوجة.

سكت وبقيت فـي مكـاني، لأننـي وجلـت فاسترسـلت مهـا: ألـم تـر أمـك وأبـاك يتصرفان كأمي وأبي.

أجبتها: نعم.. لقد رأيت والدي يعض أمـي وكـدت أصـرخ مسـتغيثاً خوفـاً مـن آهاتها ولكني نكصت لأنها عادت تضحك غنجاً.

قالت مها: شاهدت والدي يأكل لحم أمي ويعصرها ويدعكها وتوقعت أن اسـمع بكاءها واستغربت كيف كانت مسرورة جداً.. تعال قلد أباك وأبي وسأقلد أمي وأمك.

اقتربت من السرير ومازلت وجلاً وبدأ وجف قلبـي فعلقـت مهـا قائلـة: شـحب لونك يا عبير.. فمما أنت خائف؟.

أجبتها مازحاً: لقد شحب لونك أيضاً.

قلدت ثغاء الغنم.. ونهقت كالحمار.. لاسترد قسماً من جرأتي المتلاشية ثم استلقيت إلى جانبها وبدأت أداعب خصرها وتحت إبطيها مدغدغاً لتضحك فتلوت فوق السرير وضحكت وصاحت ومدت يدها تستوقف يدي عن المتابعة، من شدة الضحك الذي يكاد يضجرها، وانقلبت فوقي تدغدغ صدري وخاصرتي واشتد ضحكي وحاولت أن ابعد أصابعها عني كما فعلَتْ وأهاجمها من جديد فاختلط جسدانا، واكتشفنا أننا استعذبنا هذا التماس فقبلت مها وجهي وقبلت وجهها، وخطر لي أن أسألها في تلك اللحظة: لماذا لا تذهبين إلى المدرسة يا مها؟.

قالت: يخاف والدي أن أتعلم الأمور الفاسدة منها.

قلت لها: إنني أذهب إلى المدرسة في كل يوم منذ سنوات ولكن أساتذتنا أغبياء يجهلون الأمور الفاسدة فلم يعلمنا أحد منهم حتى الآن سوى القراءة والكتابة والحساب.

سمعنا صوت انصفاق الباب الخارجي ففزعنا وكنا ندرك على صغرنا أن عقابا صارماً ينتظرنا جزاء وجودنا في سرير واحد. قالت مها فزعة: ماما ..ماما..لابد أن أهلي قد رجعوا الآن.. اهرب يا عبير اصعد في السطح بسرعة.

نهضت مها من السرير ونزلت، بينما هرولت بدوري قافزاً فوق الدرجات الخشبية على رؤوس أصابعي إلى السطح.. ولكني نسيت قبقابي في عجلتي، وكان مستحيلاً أن أعود إلى أخذه ثانية أو أن أطالب به، فأهملته حيث نسيته وتابعت الانتقال إلى سطحنا بخفة. وأصبح القبقاب سبباً في توليد نزاع كبير لأن الجيران ألقوه في ماء النهر بعدما أخبرتهم مها قائلة: إن عبيراً قذف القبقاب عامداً فوق رأسي مستهدفاً إصابتي، وقد مرق القبقاب قرب أذني وكدت أشج به لولا لطف الله.

عرفت وأنا اتبع القبقاب في النهر لألحق به وأمسكه أن الكذب لا يحتاج إلى خبرة أو تدريب، إنه خميرة الناس منذ طفولتهم، ولا سيما عند النساء تجده في دم كل أنثى منذ أن تتخلق علقة.

- ٧ -

لم تقتصر تجاربي الجنسية في حداثة سني على تجربة واحدة فقط. بل تكررت التجارب مراراً وفي مناسبات عديدة ومع بنات من أترابي، وكان ذلك يجري خلال لعبة " الطميمة " وكانت هذه اللعبة لعبتنا المفضلة بعد الغروب، فما تكاد الشمس تختفي وراء جبل قاسيون الصامد، حتى تعقد حلقة للعب وتستمر وقتاً طويلاً ولا ننضب عن الحارة إلا بعد تقريع من الأهل وشتائم من الجيران.

لكن الأحداث لم تخل من أفراح تقام في الحارة أو في حارة قريبة، فيجد الآباء والأمهات من صالحهم أن نستمر في اللعب حتى ساعات متأخرة من الليل فنمضي نحن الأولاد سهرة خصام وجدل ومشاحنات ولهو ليس عليه رقيب.

كنت أغيب عن الأعين في لعبة " الطميمة " وأجهد في البحث عن مخابئ تضلل رفاق اللعب، فلا يعثر أحد عليَّ، فكنت أربح غالباً. سألتني واحدة: أين تختبئ في كل مرة حتى تبقى رابحاً؟. فأنا لم أنج من كشف مخبئي إلا لِماماً، خبئني عن عينيَّ المُطِم.

قلت لها: لا بأس.. تعالي معي سأريك واحداً من مخابئي العديدة على ألا تدلي أحداً عليها.

وافقت فسحبتها من يدها، وركضنا مبتعدين حتى نهاية الحارة ثم اقتربت أمامها من جدار يوجد في حذائه مصنع مغطى بلوح خشبي عتيق.. رفعت اللوح وطلبت منها أن تتدلى في المصنع قبلي فرفضت وقالت: كلا .. سنبتل.

أجبتها مستحثاً حركتها: هيا قبل أن يرانا المطم أو أحد من اللاعبين معنا فيحزر مكاننا بسهولة حين يصير دوره بالطّم. هيا انزلي فيه يا هيام - وكان هذا اسمها- إن المصنع فارغ من الماء وهذا ما يجعله مخبأ مثالياً.

قالت وقد اشتد خوفها من عتم المصنع: سأقع وأصطدم بقعره.. انزل قبلي.

أجبتها: يوجد نتوء في منتصفه يسهل النزول فيه، انظري كيف سأهبط قبلك.

قرفصت وسندت كفيَّ على حافة المصنع ومددت قدماً واحدة لصق الجدار حتى استقرت على النتوء فتبَّعتُها بقدمي الثانية التي أسبلتها حتى لامست القاع وتراجعت فصرت في المصنع، وعدت أستحثها على النزول فقرفصت ومدت ساقها الأولى أمام وجهي وكانت ترتعش فأمسكت بساقها وقدتها حتى اهتدت إلى موضع النتوء واستراحت عليه، فتحركت هيام مقبلة بخفة فأحطت نصف جسدها السفلي بذراعي لأساعدها على النزول، لكن يدها أفلتت حافة المصنع بسرعة فمرق جسدها متتابعاً قرب وجهي وتحسس صدري وبطني وحمدت اهتمام ذراعيَّ بتطويقها وإلا لهوت دون ضابط أما الآن فنزلت بهوادة حتى استقر بدنها على بدني فارتبكت كثيراً وأنا أجذب اللوح الخشبي بأطراف أصابع يدي المرفوعة ليغلق فوهة المصنع.

قالت مستندة بكل ثقلها على جسمي: أنا خائفة يا عبير لأن المكان أظلم كثيراً بعد إغلاق فوهته. ألا توجد حشرات مؤذية.

أجبتها: لا يوجد سوانا في المصنع.

فضحكت ضحكة مرحة، وازدادت التصاقاً بي من الخوف طبعاً لتحملني مسؤولية اصطحابها إلى مخبئي، فرضيت أن أحمل المسؤولية كاملة فتركتها تسترخي كما شاءت لتتمالك أعصابها فحسب، ولكني أحسست بها لا ترتعش من الخوف وحده فهي تعاني أزمة نفسية في الوقت ذاته، كالأزمة التي تعانيها أمها عندما تنفرد مع رجل واحد في مكان ضيق مظلم ولا يكون ثالثهما سوى الشيطان، ولكنه شيطان أنيس في حالة هيام الآن.

قالت بعد قليل: ألست متضايقاً.. هيا نخرج.

أجبتها دون تردد: كما تريدين.. لكنني أسمع صوت المطم قربنا. سنخرج عند ابتعاد صوته عن مكاننا.

رفضت اقتراحي وأصرت على الخروج وصارت تتحرك وهي مستندة عليَّ فأحسست بجسمها اللدن يحتك بجسمي وأثار هذا الاحتكاك بصدري وحضني مشاعري تجاه أنوثتها فأحطتها من جديد لأساعدها على الخروج طبعاً، وسألتها: أ أرفعك لتصعدي.

ردت عليَّ بصوت هامس مكتوم لم أفهم حرفاً منه، فتركتها حيث كانت مسترخية على جسمي محتضناً إياها، ولعلها استمرأت نفسها الحركة التي سببت الاحتكاك فكررتها دون أن تحاول الصعود على النتوء لتخرج من المصنع، فتجاهلت معنى حركتها وبقيت على وضعي. والمعروف دون كذب أن الاحتكاك في علم الكهرباء يولد شرارة، وثبتت النظرية ونحن في المصنع فقد تولدت أكثر من شرارة بين جسمينا.

صارت هيام تردد بين الحين والحين بصوت واضح ولكنه بقي مبحوحاً: عبير هيا نخرج.. دعنا نخرج عبير .. عبير هيا هيا.

ولكنها بقيت مشلولة أعجز من أن تخطو في سبيل الخروج والابتعاد عني خطوة واحدة.

- ٨ -

مرت خلال حياتي مواقف كثيرة، أحسست فيها بلهفة الرغبة في امتلاك الصبية التي تجلس أمامي، ولكني كنت أجبن عن الإقدام على تحقيق رغبتي، وما كنت أجد تفسيراً لجبني هذا سوى خوفنا الدائم من الفضيحة.. نحن كلنا جبناء نوارب خلال ارتكاب الخطيئة ونخشى أن نأتيها بصراحة وجرأة.

أذكر مواقف مشابهة لموقفي مع هيام في المصنع.. أنني لم أركب الترام المزدحم مرة إلا وشعرت بالتي تستند إلى صدري مستمرئة وجودي قريباً منها، ولكنها تخاف أن تغمز بعين أو تضغط بأنملة صغيرة؟.. إننا ننسى أن اللذة أول حق من حقوقنا الإنسانية فنحاول سرقتها في الخفاء وبأساليب ملتوية بعيدة عن المنطق وعن مفهوم اللذة نفسها. أتساءل دوماً هل الأفضل لنا أن نظل معلقين بأهداب الفضيلة .. والفضيلة من نفوسنا براء؟. أو الأفضل أن نجهر بأفعالنا فنذبح ادعاءنا الكاذب بالفضيلة المزعومة ونريح أعماقنا فلا نعود نضج بالكذب والنفاق؟.

قلت دون مواربة ما أحسسته يضج في أعماقي وما رأيته يجري بينكن وبينكم ولست أخشى أن أجابهكم منفردين أو مجتمعين لأن يد الكذاب مشلولة وقت القتال.

إن الفارق بين اللص وغير اللص هو في الأسلوب فقط. فكلاهما عازم على امتلاك شيء من الأشياء، أما اللص فيأخذه عنوة دون رضى الآخرين وأما غير اللص أو اللص الشريف المسربل بالفضيلة فإنه يحصل على ما يريد بموافقة الآخرين وقد يحصل عليه دون علمهم.

إذا اشتريتم مرة من البائع وأعطاكم بضاعة وحلف أيماناً مغلظة أنه لم يربح سوى جزء تافه بينما كان ربحه يفوق نصف المبلغ أ ليست هذه سرقة دون علمكم؟؟ .. من الناس من يطلق على فعلته اسم الغش ..إنني لا أجد بين الغش والسرقة فارقاً، وإنهما في نظري أعمق في إنكار الفضيلة والتنكر لها من قبلة يتبادلها اثنان في ميعة الصبا إنهما أشد فتكاً في هدم المجتمع من موعد بين اثنين تحت شجرة الزيزفون، تتطور لإنشاء أسرة.

اعترف الآن على الرغم من احترام الناس لي واعتباري مواطناً شريفاً أنني كنت لصاً في مناسبات عديدة فقد سرقت مراراً أثماراً من أشجار البساتين وسرقت كتباً ومجلات لم أعدها لأصحابها وسرقت قبلاً من وجنات الفتيات وثغورهِنَّ .. أولم تفعلوا مثلي في صغركم وفي كبركم أيضاً.

حتام نلبس مسوح الرهبان ونضع العمائم وندعي الفضيلة وفي إهابنا ألف خطيئة وخطيئة.. لماذا لا نتصارح قبلما نرجم بعضنا بعضاً بألسنة السوء ؟. لماذا لا نعمل لخلق حياة أفضل مبنية على أسس جديدة من مفاهيم الأخلاق واللاأخلاق وليكن الصدق وحده الركيزة الأولى في حياتنا الجديدة؟..

كنت أحدث الآخرين بذلك منذ صغري وأقف أمام الأستاذ وأسجل اعترافي وأطلب من الآخرين أن يفعلوا مثلي وأن يفتحوا قلوبهم ويتحدثوا بصراحة فقد نجد بعضاً من أمل يغرينا على البقاء. ولكني ما كنت ألقى من أصدقائي سوى الهزء ومن أساتذتي غير الإهانات وكنت ألمح في عيونهم رهبة سؤالي وكان الخوف الدائم قبل إجابتي هو الجواب الصحيح الذي أبحث عنه.

بنات عديدات أنكرن أمام خطيبهنَّ معرفة القبلة، وأؤكد لكم أنني لم أقتصر معهن في علاقتي على قبلة أو اثنتين أو دغدغة الصدر أو عبث بالنهدين، فطالما رفعت التنورة المزهرة ، وتأملت أزهار الربى الساقين العارمتين البضتين كزبد البحر الرجراج أو السمراوين كقشر ة الكستناء ، وطالما لعبت أناملي تحت آباطهنَّ وحول سرتهنَّ وعند عقدة السوتيان وعند كل دفء وثنية، وإن واحداً من أولئك الأزواج لم يقبل بعروس حامت حولها شبهة ابن عمها، وقبل بهذه التي لم يقبل ثغرها إلا أمها وأنا وآخرون يعرفهم الله وحده حسب نسق خلقها.

حضرات المغفلين ولا أستحي أن أكون منكم في المستقبل لأني سأظن أن التي قاسمتني فراشي أنقى وأطهر من التي عظمت في عيني علاقتها مع شاب آخر.

اذكروا أنكم عاشرتم من النساء قبل الزواج ما لا يعد ولا يحصى، أ فبعد هذا تضللون أنفسكم؟.

قال لي صديق في الحارة وكنا جالسين نتحدث في أمور تافهة: أريد أن أطلعك على سر خطير ..فهل تكتمه عن الآخرين؟.

أجبته: نعم إنني أعدك بكتمان القصة كاملة .

اتجهت معه نحو ركن معزول لأنفرد به وعندي رغبة في الإطلاع على ذلك السر فأنا إنسان أهوى جمع الأسرار كمعظم الناس، ولا سيما الأسرار الشخصية، فلا آبه لسر القنبلة الهيدروجينية ولا يهمني اختراع صاروخ كما يجذب انتباهي سر إنسان آخر وجمع فضائح البشر كبيرهم وصغيرهم ووضعها كالطوابع والتواقيع والصور في مجموعات.

طلب صديقي أن أقسم له على كتمان الخبر قبلما يعلمني به، فأقسمت أنني لن أخبر أحداً دون تردد، ولكنه عاد وتذكر أن هذا القسم بالله وأنبيائه لم يلزمني في مرة ماضية فطلب أن أحلف له في هذه المرة بأمي وأبي وعينيَّ، فحلفت له بكل أقربائي وبحياتي وحياته، وكنت في نفس الوقت أعلم واثقاً أنني لن أتوانى عن إذاعة الخبر إذا ما أحرجتني طبيعة الثرثرة قبل غياب الشمس.

صدق الغبي أنني سأكتم الخبر وأقول الغبي لأنها لم تكن مرة وحيدة التي لم أف بوعدي فيها بل مرات ومرات، فما أكثر ما حدثت الآخرين بما باح لي به مع زيادة في التفاصيل حصلت عليها من سواه.

قال لي: ضبطت زهيراً يقبل أختي البارحة في الدهليز.

سألته ببَرود: حقاً.. كنت أحترم ذوق زهير في السابق.. وماذا فعلت؟.

قال: هجمت عليه وكنت أنوي ضربه وحاولت أن أتشاجر معه لكني خشيت أن يعلم بقية أصدقائنا بالحكاية فتركته إلى حين فهل لك أن تدلني على طريقة انتقم فيها من تعديه على شرفي؟.

سألته بالبَرود ذاته الذي قابلت به الخبر: ولماذا تريد أن تنتقم منه؟.

قال لي: ألم تدرك فعلته الشنعاء إنه وقح وقليل أدب وسافل.

أعدت السؤال بغباء واضح: عن أي فعلة شنعاء تتحدث؟.. إنني لم أفهم منك حرفاً واحداً حتى الآن.

قال محتداً: لقد اتخذته صديقاً لي وساعدته كثيراً في المدرسة وإنني ألعب معه دوماً.. وأدخله إلى بيتي وأقدم له كتبي فيخونني ويستغفلني ويقبل أختي في الدهليز أو ليس فعله نذالة ليس بعدها من نذالة.

أجبته: رويدك رويدك.. وحذار من الاندفاع وراء الحمية الفارغة المضللة يجب أن نبحث الموضوع جيداً.. فما أدراك أن تكون أختك شجعته على تقبيلها؟.. وأن الذنب ذنبها وليس ذنب صديقك المسكين الذي ظلمته بحكمك العاجل.

تجهم وجهه بعد سماعه قولي ودفعني بغلظة كأنه ينوي ضربي فطلبت منه أن يتريث لأقنعه بالبرهان الساطع فقلت له: اسمع لقد قلت رأيي بناء على تجربتك الماضية، ألم تخبرني أن أخت عصام طلبت منك أن تقبلها مراراً وأنك خجلت في بادئ الأمر، ثم وجدت التقبيل عبثاً سهلاً ولذيذاً.

خف سخطه وهو يتابع قولي ثم أجاب: إن أخت عصام معروفة بين كل الصبيان بشهوانيتها لقد طلبت من كثيرين أن يقبلوها .. وإنها كذا وكذا، أما أختي فتختلف كثيراً عن بقية الفتيات إنها ذات أخلاق عالية.

استمهلته لأسأله: أليس عصام صديقك الحميم.. فكيف تبيح لنفسك الطعن بأخلاق أخته في غيابه.. ألا تخجل أن ترافقه وتورد كل هذه الألفاظ عن عائلته. لقد خجل كلب بن كلب أن يعوي نصف ما أوردت من عبارات الشتائم والسباب وقذف محصنة كانت غبية حين نولتك قبلة من نفسها، ثم تدعي أن اختك بالغة راشدة وحكيمة.. ودرة مصونة.. وتهين أخت زهير، إذن سأصارحك بأشياء لا تعرفها يا عزيزي وهي أن الآخرين يحكون في غيابك قصصاً عن أختك أضعاف ما قلته عن أخت صديقك، ويؤكد كل منهم أنها طلبت منه أن يقبلها ويدغدغ صدرها من قبل أن تطلب من زهير المسكين الذي سايرها ليستر سمعتها وسمعتك.

أرغى وأزبد وهاج وماج ولم يصدق حرفاً واحداً مما رويته له، وبقي على اعتقاده بأننا منافقون وأن أخته ربة الصون والعفاف. وكان عليه أن يصدق دون أن

يسأل أحداً أليست تجربته مثل تجاربنا؟ أو أننا نلهو مع بنات هابطات من الكواكب وليس لهن أخوة، أو أن الذي يؤلمه أن الثمن دفع مجبراً من أصل الحساب فقرر ألا يفهم الواقع المعاش.

دفعني بغلظة وصاح: أنت أيضاً نذل وحقير.. أنت كذاب.. أنت منحوس.

أخذت حجراً من الأرض، وشددت عليه وما كنت في الحقيقة أنوي ضربه، إنما لأخلص من شتائمه ففر مذعوراً واختفى عن الأبصار.

ضحكت ملء شدقيَّ، حيث كان في إمكاني أن أدعوه ليرى أخته بأم عينيه مختبئة معي في المصنع، ولكني لست من الغباء بالقدر الذي يفقدني شيئاً يجود عليَّ بمتع شتى لأورث مجنوناً عقلاً حصيفاً.

لم تكن حارتنا وحدها مختصة بالمسرحيات العاطفية على مدار السنين ومختلف الأعمار لأنها حارة ضيقة ومتصلة الأسطح ومعتمة. إن فصولاً غرامية أكثر حرارة ودفئاً كانت تقع في الشوارع العريضة المضاءة بالشمس نهاراً، وبأضواء المصابيح الكبيرة ليلاً وما كان يهم الأبطال في تلك الجادات وجود الشمس ولا الأضواء، لأن علنية المشاهد الغرامية جزء من أرستقراطية أبناء وبنات الأسر الثرية.

كانت الفصول متشابهة لأن خلجة النفس واحدة عند الصبيان والبنات في كل الأماكن الآهلة بالبشر، إنما العبرة عند النتيجة، فالنتيجة في الحارات القديمة نحن كلنا شرفاء ومتعصبون لشرفنا، أما في الشوارع العريضة فهم كلهم شرفاء فقط من دون تعصب.

القسم الثالث

تعلمت القاعدة الأولى في الحياة، لاشيء دون ثمن، وليس من الضروري أن يكون الثمن مالاً، قد يكون من صحة الإنسان أو يكون من وقته أو من عواطفه أو من ذاته، وهو أفدح الأثمان.

إن كل عبرة تريقها في حياتك هي ثمن اللحظة التي سعدت بها في أمسك، وكان الأمر يختلف بالنسبة لي فكنت أذرف الدمع ثمناً لعبرة جادت بها عيناي في أمسي.

- ١ -

أصيب والدي بمرض خطير في كبده، فلزم الفراش ريثما يتماثل نحو الشفاء، لكن المرض الخبيث جار عليه فلم يعد يستطيع مغادرة المنزل، وبقيت دكانه مغلقة خلال الأشهر التي انصرمت وهو يعاني آلام الداء.

قر الرأي في المنزل أن أستلم الدكان نيابة عنه ففرحت بالخبر وامتثلت للأمر. وخلصت بذلك من مضايقات الأساتذة والطلاب وأهلي أنفسهم لأن المشكلة في البيت مع صرف المدخر وعذاب الوالد المريض صارت جديه لا تحتمل نقاشاً.

غادرت المنزل باكراً إلى السوق، وكان في جيبي مفتاح القفل العتيد الذي رحت أتحسسه، وكانت في قلبي آمال واسعة راحت تداعب خيالي، سأعمل في الدكان طوال النهار ثم أعود في المساء تعباً، فأستلقي وأطلب الراحة والهدوء وأطلب أشياء ثانية لم أكن أجرؤ على التلفظ بها.. ألست الآن عميد عائلة ورب أسرة؟. ولو كانت أسرة صغيرة .. إنني أؤدي الواجبات وسأطالب بالحقوق كاملة.

كانت دكان والدي في زقاق خلف سوق العطارين في اتجاه الجامع الأموي، وكان والدي يضع فيها من كل شيء حبة، فيما خلا العطارة والعطور فلا وجود لها في الدكان. ولعل السبب قلة المال بين يديه فلا يقدر على المنافسة في تلك المواد أو أنه كان يكره الاختصاص فكان لديه في دكانه حلاوة ومكانس ومقشات وحبوب لوجع الرأس وسكر وقباقيب وجبن وزيتون وأغراض أخرى كالخيطان والإبر والدبابيس.

فتحت الدكان وجلست خلف الطاولة الصغيرة، واستبشرت خيراً فقد وقف أمام الدكان ما يزيد على مائة شخص، جعلوني أشك في مقدرتي على تلبية طلباتهم، لكن واحداً منهم لم يخز عين الشيطان بشراء حاجة، بل سألني جمعهم عن صحة والدي، وهل ستطول مدة مرضه أم أنه قد تماثل للشفاء، فطمأنتهم وأكدت لهم أن أبي في دور النقاهة، وفرحت على الرغم من إضاعة الوقت بحسن أخلاقهم وحسن معشرهم وحرصهم المحمود على معرفة أخبار جارهم في السوق.

مضى اليوم الأول دون أن ارزق شيئاً إلا نصف قرش أضاعه طفل صغير أمام دكاني وجدته بعد انصرافه محشوراً في حفرة حلقة القفل. ومن سألني عن سعر حاجة غادرني مستغرباً السعر الذي طلبته منه، وهو السعر الذي نصحني جيراني بالإصرار عليه لأربح الزبائن وأسعدهم.

قالت أمي: يا لك من منحوس لم تبع إلا بنصف قرش طوال النهار، كان أبوك يبيع كثيراً في نهار واحد.

أجبتها: ستتحسن الأحوال عما قريب.. هذا هو اليوم الأول بعد إغلاق الدكان مدة طويلة، ولم يعرف زبائن والدي بالافتتاح العظيم وبالإدارة الجديدة تحت إشراف الفارس التاريخي قذاعة بن الشيخ صالح.

قالت: هه بان المكتوب من عنوانه.

سكت على مضض ثم انزويت في ركن الغرفة.. ولم أنبس ببنت شفة خشية من أن تعود أمي إلى لومي، وكنت بدأت أحس بالاشمئزاز من الحياة وكل ما حولي وجنحت نفسي من عبارات الوالدة نحو التشاؤم واليأس المحبط.

صليت الصبح بناء على توصيات والدي وذهبت إلى الدكان دون أن أتناول طعام الإفطار حتى أسبق زملائي في استقبال الزبائن، فكنت أول من فتح دكانه في السوق، فاجتمع عدد من الفلاحين أمام الدكان وسألوني عن أصناف متعددة كالزنجبيل والحنة وما شابه وأشياء كثيرة لم تكن أكثرها موجودة لدي لكنني أعطيتهم ما كان عندي واستمهلتهم فيما بقي من حوائجهم إلى الغد.

ولاحظت أن الأسعار التي كنت أعتمد على جيراني في معرفتها غير صحيحة لأنهم كانوا ينصحوني بسعر عال لا يتقيدون به، فلجأت إلى الزبائن لمعرفة الأسعار المقبولة. وكنت أعرف رأس مال الأصناف التي أضفتها إلى الدكان طبعاً.

تحسنت الأحوال، لكنني لم أخلص من عتاب الوالدة وتقريعها.. فكان كل ما أجلبه معي في المساء فاسداً في نظرها حتى ولو كان حسب رغبتها، ولذا صرت أجد راحة في الدكان غير متوفرة في المنزل فقررت أن أخرج باكراً وأن أعود متأخراً.

قال جاري يحدث جاره: هذا الصبي على صغر سنه أنشط من أبيه يفتح الدكان باكراً ويغلقها متأخراً، ولقد فهم الأسعار بسرعة وحفظها فصار يلبي حاجات الناس حتى أنه استولى على قسم من زبائني الممتازين.

قال الجار الثاني: أجل..هذا صحيح، لقد استولى على عدد من زبائني أنا الآخر ويجب أن ننبهه. نحن نحب والده ونحترمه ولكن محبتنا لا تعني أن نتساهل مع هذا الخبيث في سرقة زبائننا.

حلفت لهما ألف يمين أن أسماء الذين يشترون من الدكان موجودة سابقاً في دفاتر أبي وأنهم زبائنه قبل إغلاق الدكان وقد عادوا إليَّ بعد فتحها فلم يصدق كلامي إنسان في السوق، وأمعن الاثنان في تهديدي وعرفت آنئذ أنهم كانوا يتمنون لو أن والدي يبقى مريضاً وتبقى الدكان مغلقة.

زادت المشاكل تدريجياً مع الجيران، فلم أتوان عن إبداء الرأي جهاراً في وجه كل واحد منهم. واتفق الذين كانوا من حولي على تخفيض الأسعار بغية محاربتي دون هوادة. احترت في بادئ الأمر كيف يتسنى لهم تخفيض الأسعار دون رأس المال، وكنا نتسوق بضائعنا من المصادر ذاتها، وسرعان ما اكتشفت أن وزنة واحدة من مبيعاتهم لم تعد صحيحة بعد تطبيق أسلوب المضاربة والتخفيض الذي تجاوز رأس المال.. إن ما يخسرونه في السعر يربحون ضعفه بطرق الغش التي أباحوا ممارستها لأنفسهم.

من يملك خبرة في التحليل ليكشف غش نشا القمح بنشا الذرة ، أو ليعرف السمنة السالمة من المغشوشة.. تذهب المشتريات إلى البيوت دون تحليل، ولما كان عدد المتذوقين بين المستهلكين قليل جداً فقد تقلص عدد زبائني لأنني أبقيت الأسعار مرتفعة وامتنعت عن الغش، فلم أعد أربح غير الخسارة بعيداً عن المدرسة.

شعرت بحنين إلى الكتب فابتعت عدداً منها، وصرفت وقتي الفارغ في قراءة مجدية. ولم تلبث قراءة الكتب أن أصبحت هوايتي المفضلة في وقت قصير فانتقلت من مطالعة قصص الأولاد إلى روايات الجيب وهي متوفرة بأسعار رخيصة، ثم بدأت بمطالعة الكتب الأدبية.

ساعدتني الكتب كثيراً على قتل الوقت في الدكان وأطلعتني على عوالم لم تخطر على بال.. ولاحظت أن ما تعلمته خلال أشهر من مطالعتي الشخصية يفوق ما أخذته عن أساتذتي خلال سنوات المدرسة التي صرم مرض والدي أجلها وهي لم تتجاوز ثماني سنوات.

ساعدتني الكتب على الصبر على أيام البؤس وعلى غربتي بين التجار وعلى مجابهة والدتي في كل مساء وقوّت من إيماني بنفسي.

انتظرت طويلاً حتى يرجع زملاء المهنة عن غيهم وحتى يكتشفوا أن صلاتهم مع فساد خلقهم وغشهم ليست أفضل من ضلالي على حد زعمهم، مع احترامي للناس ولعلاقتي بهم.

وطال انتظاري حتى تساءلت: ما الداعي إلى الفضيلة في بؤرة مملوءة بالفساد؟ أو أبقى شريفاً جائعاً ومن حولي لصوص متخمون؟. فقر رأيي، أن ضرورة الفضيلة في هذه البؤرة أكثر لزوماً من ضرورتها في جو خالص الطهر.

❁❁❁

بدأت المصائب حين زارني طويل قامة واسع الثراء كما يبدو من منظره، وصار يناقش في جملة من الأغراض، وحاول التجار استمالته ففضل أن يشتري من دكاني. زنت له ما طلب بأمانة واخترت له أجود الأصناف وجمعت الحساب بدقة تامة، ثم حزمت المشتريات وجعلتها طرداً واحداً بشكل جميل يسهل حمله.

سألته إذا كان يريد إرسال الطرد إلى مكان معين فأُشرِفُ شخصياً على توصيله له، لكنه رفض فقلت له آنئذ: شكراً لك.. هل لك أن تدفع لي الآن الحساب؟.

صعقني جوابه حين قال: أنا في انتظار أن تأخذ حسابك وتعيد الباقي فقد أعطيتك ورقة صحيحة بمائة ليرة هل نسيت؟.

تعوذت بالله وملائكته وكتبه وأنبيائه وبسملت وقرأت الفاتحة والصمدية ولكن ذلك لم يبدل من رأيه وازداد شراسة وهو يصيح: حرامي .. حرامي .. أنت لص.. ألا تخجل من سلوكك.

تجمع جيراني حول الدكان بعد المشادة بيننا، وكان أكثرهم يحب والدي ويحرص على راحة ابنه ولكنهم إزاء الحق لا يقدرون على مغالبة ضمائرهم أو الإقدام على فعلة منكرة لأن الحق أمضى من السيف، وأنا في نظرهم ولد قذر بينما والدي شيخ طيب القلب ورجل صالح.

قال جاري القريب جداً: مسكين الشيخ صالح وردة خلفت شوكة.

تأكدت من أن البقرة وقعت. وأن من العبث أن أعتمد على واحد منهم فقد كانوا كلهم في انتظار هذه اللحظة، لإبداء تمسكهم بأهداب الفضيلة، أليست فرصة نادرة أن تجد مناسبة للتدليل على سمو أخلاقك بشتم الآخرين؟.

نظرت إلى جاري وأجبته بسلاطة: شوكة تغرز في عينك.. كلكم لصوص ..كلكم سارقون.. كلكم منافقون.

هجمت على الطويل والتحمت معه على صغري وقصري في معركة حامية نالني فيها عدد كبير من الصفعات على وجهي من يده الطويلة وصار أني ضربته حتى احمر وجهي، لكن محفظته وقعت خلال التحامنا على الأرض بين أكياس الدكان فتراجعت نحو الخلف لا خوفاً منه ولا فراراً وإنما وراء المحفظة لألقي عليها واحداً من الأكياس قبل أن يراها غيري، ولن يهمني ما سيحدث إثر ذلك. جاء الشرطي وانتهرني حسب أقوال الجيران وكال لي بدوره السباب وسأل عن البيك الطويل صاحب الحق الضائع. لكن البيك اختفى مع المشتريات ولم يعد له أثر في السوق.

آمن الجيران والناس والمارون والواقفون أنني كنت على حق وأن ذلك الزبون محتال من طراز رفيع قد فر قبلما يتعرف عليه أحد من رجال الشرطة فيما إذا

وصلت القضية إلى المخفر. لكن واحداً من الذين حضروا فصول المأساة لم يزد على قوله: لعن الله الشيطان .. لعن الله الشيطان.

- ٢ -

انفردت مع المحفظة بعدما تفرق المشاهدون وأسدل الستار. كانت محفظة أنيقة مملوءة بأوراق نقدية من فئة عالية. أغلقت الدكان في المساء واتجهت إلى المنزل منتفخ الأوداج وكنت أتطلع باحتقار إلى جيراني وكانوا يغضون الطرف خجلاً من تنكرهم لي حين احتجتهم.

ابتسمت إزاء الموقف المتناقض، لقد غدوت محترماً عندما سرقت إنساناً وكنت محتقراً عندما حاول ذلك الإنسان سرقتي!. هل من الضروري أن نعيد النظر في كل محترم ومحتقر ؟.أم أن إرسال الشرفاء إلى السجون خشية عليهم من الناس؟. أو لا نعيش في وهم بين فكرة الخطيئة والعقاب والمكافئة؟. أو لا يجوز أن يكون هناك تفسير آخر لقانون العقبات فتكون عقوبة الإعدام منتهى حدود الرحمة بتخليص الإنسان الثوري من جسده.

قد تكون كل هذه التخيلات أوهام عقل مريض أو لغو طفل أمام ظروف النحس القاسية، لكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هو أن الاحتيال أثار كل هذه التخيلات وهو أمر واقع يقوم به إنسان تجاه إنسان وهو ما يذري بالحياة الإنسانية.

أعطيت والدتي جزءاً من المال الوفير الذي أصبح في حوزتي مبيناً لها أن الأحوال قد تحسنت.. واشتريت عدداً من الكتب ولم أبخل على نفسي في طلب المتعة والصرف في سبيل اللهو وحده.

ظننت الأحوال الجيدة ستدوم طويلاً ولكن الأوضاع تبدلت على نحو غير متوقع، وعادت الظروف السيئة ومعها المتاعب الجمة المرعبة، ولم يكن سبب المشاكل الجديدة نفاد المال فلا يزال في حوزتي الكثير منه ولم يكن السبب أسرتي فقد رضيت والدتي عليَّ كثيراً لأنني أصبحت أربح أكثر مما كان والدي يقدر على ربحه

فاحترمتني وشارك والدي في احترامي بعدما جلبت له أحسن أطباء البلد وأغلى الأدوية ثمناً.

إن سبب المأساة بعيد عن كل ما ذكرت وهو بعيد أيضاً عن الجار أو الناس أو عن ضميري لأنه إستمرأ النوم وصار يستصعب ساعات الصحو فلم يستيقظ عندما كنت أتمتع بالحالة الرخية، إنني لم ألم نفسي على سرقة محفظة ذلك الغشاش المحتال إلا بعدما أصبحت ضمن المشكلة الخطيرة. كانت المحفظة نفسها مسروقة وكان ما فيها من مال مزور.

وقفت دورية من رجال الشرطة والأمن أمام باب الدكان وكان على رأسها ضابط فرنسي أحمر الوجه وأحمق وعصبي المزاج يتحرك كالرفاس، تكلم الضابط بلهجة احتقار مشيراً بإصبعه إليَّ وقال ما معناه: اقبضوا على هذا القميء الوسخ.

تأملت شكله وابتسمت إذ أنني لم أعرف السبب بعد، وكان فخراً لإنسان في ذلك الوقت أن يساق إلى السجن أمام ضابط فرنسي. جذبني أحدهم من كتفي بشدة ودفعني نحو السيارة.

سألتهم بلهجة المستغرب، وقد تبين أن القضية جد تماماً ولا مزاح فيها: ماذا تريدون مني؟. إنني لا أفهم سبباً لسلوككم الأرعن.

صفعني أحدهم على وجهي، فالتفت نحو الفرنسي وخاطبته محتداً بلغتي الفرنسية المكسرة: أنت ورجالك تعتدون عليَّ دون حق.

لكزني الضابط في خاصرتي قائلاً: اخرس ستنال عقاباً صارماً.. عما قريب.

أطبقت فمي ولم أعد أنطق حرفاً خوفاً من الضرب، وحين بلغنا مبنى حكومياً كبيراً أُخِذْتُ إلى غرفة وجررت من كمي جراً وأُهملتُ في انتظار التحقيق.

خففت ذكرى الروايات البوليسية التي كنت قد قرأتها من وطأة الشدة التي وقعت فيها. فشعرت بإحساس عميق بفكرة البطولة التي أعجبت بها كثيراً، فقررت أن أتصرف تصرفاً رهيباً تجاه المحقق الذي لم يكن بالطبع المفتش ويليام تيل ولا شرلوك

هولمز لأنني شخصياً لم أكن بالطبع أرسين لوبين وإنما موقف مشابه لمواقف اللص الظريف بين أيدي إنسان له وظيفة المفتش ويليام تيل. لقد عزمت أن أداعب المفتش على طريقة اللص الشريف المذكور الذي ابتدعته مخيلة أخينا موريس لبلان ولاسيما أني كنت بريئاً في نظر نفسي على الأقل وهو المهم.

أدخلت غرفة المحقق بعد انتظار طويل يعتبر نفسه جزءاً من التحقيق، وكان المحقق فرنسيا أيضاً، فابتدرني بمجموعة من الجمل، لا ريب في أنه متدرب عليها طويلاً حتى أتقن لفظها بسرعة وما يزال ينتظر ترقية من أجلها، لكنني تبينت من سلوكه تصميمه على أمر رهيب، وكان يجلس في قبالته موظف مدني عرفت بعد ذلك أنه المترجم، عندما أخذ يترجم لي أسئلة المحقق وكان في الغرفة أيضاً عدد من الكراسي وسلة مهملات وسنغالي و خزانة ومبصقة.

سألني المحقق وترجم المترجم: ما اسمك؟.

أجبته: لي ثلاثة أسماء.

قلت ذلك ببساطة تامة وابتسمت ونظرت إليه متحدياً وقد تملكني صلف شديد، فهوى السنغالي على نقرتي بقبضة يده فهز كياني وآلمني جداً. لكنني قررت أن أتجلد فزورت المحقق والسنغالي كأني أتوعدهما معاً.

قال بلهجة أشد من الأولى: ما اسمك؟.

أجبته سريعاً وبلهجة أكثر حنقاً: إنني أرفض الكلام قبل أن أعرف تهمتي.

وكنت قد قرأت هذا الحوار بين أرسين لوبين والمفتش ويليام تيل. هز المحقق رأسه مفكراً وقال يحدث المترجم: تدل هيئته على حداثة سنه ولكنه ذكي، ويجب أن نكون حذرين معه.

أخطأ المترجم وترجم عبارة ثناء المحقق وكان شارداً عن الواقع يفكر في وقت الانصراف، فاضطر المحقق إلى أن يدوس على قدمه لكن المترجم لم يفهم سبب الضغط أيضاً فصاح: آخ لم دست قدمي سيدي المحقق؟.

ضحكت بصوت مرتفع من النكتة البارعة التي جرت أمامي وتقدمت نحو الطاولة وقد ازددت إعجاباً بنفسي، وأخذت سيجارة من باكيت المحقق وقلت له بلغة فرنسية مهلهلة: هل تسمح أن تولع لي هذه السيجارة.

ثم مددت أصابعي في اتجاهه وحاولت أن أنغز بطنه مداعباً كما يفعل أرسين لوبين مع المحققين، ولكني - يا أخي - أُصبت بدفشة في خاصرتي ولبجة على قفاي من السنغالي ألقت بي عند أسفل الحائط.

هاجت المناظر في عينيَّ وماجت المرئيات كلها ودارت الغرفة ولم أعد أعي شيئاً، وقد هجم ثلاثتهم عليَّ وانهالوا بالضرب المتواصل المبرح أكثر من خمس دقائق.. كانت كافية لأفقد وعيي.

استيقظت في ساعة متأخرة من نهار اليوم الثاني فوجدت شرطياً أمام الباب وكان يحرسني ولم يلبث أن دخل الغرفة بعد يقظتي وقال: هيا تعال معي..حظك سعيد جداً.. لقد قبض على مزور الأوراق النقدية واعترف وسيطلق سراحك في الحال.

خرجت من دائرة الشرطة بعدما صار لي اسم في سجلاتها وما زال الشرطي يردد : حظك سعيد ..وإلا - يا لطيف - لو تعلم ما الذي ينتظرك من عذاب أليم.

ابتسمت في وجهه ببلاهة وهززت رأسي موافقاً: أجل حظي سعيد جداً.

- ٣ -

وصلت الحارة حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، ولكني ما كدت أقترب من المنزل حتى أرعبني المنظر، فلم تطل فرحتي بالخلاص من الأزمة، فقد كان في الحارة جمع غفير من الناس وكان بينهم عدد من الشيوخ وأناس حملوا أكاليل من الآس وعلباً طافحة بالحناء وعطر " الطرابة " وكل ما يلزم ميتاً ليكفن ويدفن.

حدقت في ذلك الجمع وبينهم أقرباء أبي وأمي، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على إخباري بالحقيقة القاسية المرة، فشققت طريقي بينهم وكان قلبي يضطرب بعنف فلم ينظر إليَّ جار ولم يبتسم قريب.

توفى الله والدي ليلة البارحة، وهالتني هذه الحقيقة..لم يعد لي أب .. قابلت أمي في الدهليز، وكانت ترتدي ثوباً أسود غامقاً ولفت شعرها ووجهها بمنديل أسود كبير يوحي بأنها أصبحت أرملة، لكنها ظهرت جميلة ذات رونق في ثياب الحداد وكانت تبكي وتولول بين الفترة والفترة.

جفت دمعتي من هول الصدمة وأحسست ببرود في أطرافي وامتقع وجهي، تقدمت نحو المطبخ حيث كان يجري تغسيله وتحضيره، فحاول الناس منعي من الدخول عند والدي ولكني دفعتهم عني وشددت من عزيمتي ودخلت في المطبخ.. كنت تحت تأثير شعور واضح عميق يدعوني إلى رؤيته المرة الأخيرة.

كان جثمانه مسجى فوق الطاولة الخشبية العريضة التي يؤتى بها كعدة عمل، وقد وقف رجل كريه المنظر إلى جانبه وقد لا يكون كذلك، وراح يجفف شعره وبدنه ثم أخذ يحشو فمه وأنفه ومواضع أخرى من بدنه بالقطن والحناء ولفه بالكفن.

طلبت الانفراد دقائق مع الجثة التي كانت حتى البارحة والدي..لكنهم أبوا عليَّ ذلك شفقة، وكنت أصغر في نظرهم من أن يجاب طلبي أو أن يؤخذ بعين الاعتبار.

قال واحد: اخرج أيها الشقي فعيناك لم تبتلا بالدموع.

ازداد الحقد في قلبي وعصي الدمع وغدا أسهل انحباساً وأصعب انهماراً فبقيت جائر اللحظ ، وقفت في صحن الدار وكانت الولاويل على أشدها وقد ارتفعت صاخبة مع ابتداء الصياح " بفضل لا إله إلا الله سامحوه ".

إنما استطاعت عيناي أن تلمحا أموراً متعددة خلال إعداد الجنازة، كانت جارتنا تلطم وجهها أمام والدتي ثم تتجه نحو الدهليز فتضحك مع جارة لها وتغمز حول صراخ أمي وسمعتها تقول: ما أبرعها في تمثيل الحزن!. صارت منذ شهر تتمنى موته بعدما طال مرضه.

ولاحظت أن جارنا يبدي اهتماماً زائداً في موضوع الجنازة، كما كان يتابع تحركات أمي بنظراته السخية وقد أعجبه انسجام ثوب الحداد على قامتها المديدة وبشرتها الناصعة، ولاسيما حين علق طرف ثوبها ولم تنتبه إليه لكن العيون انتبهت وتخطفت منظر عري جنبها، وسمعت في تلك اللحظة تعليق قريبة لنا قالت: ما تزال أم عبير صبية وستجد عريساً لها في أقرب فرصة.

قالت امرأة أخرى: لن تمضي سنة على وفاة المرحوم حتى تكون أم عبير وجدت عريساً أحسن من المرحوم وأغنى منه، لأن أمها – وتعني جدتي – خبيثة وقادرة على إيجاد العرسان بسهولة.

قيلت مئات من التعليقات أثناء النواح والبكاء، ولم تخجل امرأة من اللواتي كن يذرفن الدمع الهتون أن تترك لسانها السليط ينفث سمومه، شعرت أن دمعي الذي جف في عيني كان أشرف مما أريق من الدمع على جثمان والدي الطاهر.

رافقت الجنازة بحزن بالغ، وحين عدت إلى المنزل وجدت منظره كئيباً بوجود عدد من النسوة ينحن نواحاً ويندبن ندباً مفجعاً. حسبت الحزن سيمنع والدتي من طرح الأسئلة وسيمسك لسانها فلا تنجرف في تيار اللوم والتقريع، وبان الأمر عكس ما قدرت، حين فتحت معي محضراً أطول من محاضر التحقيق الرسمية، وكان قد بلغها خبر مداهمة الدكان واعتقالي.

استفهمت والدتي عن أمور شتى وطلبت إيضاحاً عن مصير المال الذي أعطيتها منه، وكان اعتقادها الجازم أنني لص بارع استطاع تضليل قوى الأمن والإفلات من يد البوليس، وقد آلمني كثيراً هذا الاعتقاد، وليس سبب ألمي وصمة العار التي ألحقتها بي وإنما لأنها أرسلت إهانتها وكأنها تقول السلام عليكم ولم تهتم بصحة التهمة أو عدمها بقدر اهتمامها في أن تعلم مقدار ما بقي معي من المال.

أخبرتها عن المشكلة التي جرت لي فلم تقتنع ولم تصدق ضرورة إتلافه، وعنفتني وطالبت به وقالت: لن أسامحك يا عبير إذا لم تعطني بقية المبلغ الذي كنت

تصرف منه.. لقد أصبحت وحيدة ليس من يعطف عليَّ بعدما توفى الله أباك، وأريد أن أعلمك أنك كنت وقحاً طوال ساعات الجنازة فلم تذرف عيناك دمعة واحدة.

سكت على مضض وقد شعرت أن من العبث مجادلتها في أمر لن تفهمه، ومضيت إلى غرفة لا أحد فيها وجلست وحدي في الظلام وكانت حدقتا قطة تبرقان في الظلام إلى جانبي، لم أنم ولم يغمض جفن لي وظلت الكآبة مستولية عليَّ.

انتهت أمسيات التعزية الثلاث، فقررت أن أنفرد مع قبر والدي فخرجت من المنزل بعد صلاة العشاء واتجهت نحو المقبرة، جلست إلى جانب القبر ولكنني لم أتل على روحه أي عشر لأنني لم أكن بحالة تسمح لي بتذكر الآيات دون غلط.

كنت أشعر بحاجتي إلى التحدث مع أبي عن مشاعري ومشاكلي فقلت: والدي العزيز.. نلت من المصائب ما يزهد كل شجاع ببقائه، لكنني سأكافح بعزم وأعدك أن أكون أحسن منك في المستقبل حتى يحين موعد أجلي. أليس هذا ما تتمناه أن أكون خير خلف لسلف. لقد كانت لك أخطاؤك في تربيتي دون قصد فقد أدركت بعدما قرأت كثيراً أنك كنت جاهلاً. ولهذا أسأت إليَّ دون أن تدري، إنني أسامحك وأشكرك لأنك مع أمي واسطة قدومي إلى الوجود.. لقد أحببت الوجود رغم مشاكله، إنه أخف وطأة من القبر الذي تتعطل حواسنا عند صرحه الفاصل، فما يزال خارج القبر بعض الأمل في تحسن الأمور، أما عندك في ما وراء القبر فلا أظن الآمال تعقد على شيء. لست واثقاً من لقائي بك في يوم ما، وليس السبب أنني سأتنكر لك في يوم القيامة فالعالم لم يخل من الأبطال على مدى الدهور، وإنما كثير منك في ذاتي، فلا حاجة لأن نلتقي، وحتى يحين موعد وفاتي سأذكر أنك كنت طيباً وفاضلاً فكم رأيت في الحياة أسوأ منك، لكن الموت لم يتخطفهم بعد.. والدي الذي لم يورّثني مالاً وأورثني ما هو أغلى من المال الذي هو جلدك وذهنك المتوقد فشكراً وألف شكر لك.

صمَتُّ وقُدِّرَ لي أن أشاهد قمراً يسرح بين السحب في سماء المقبرة وأن أشاهد ظلال شواهد القبور مرمية بعضها إلى جوار بعض كأنها سفر عظيم مفتوح

للقراءة والعبرة.. فأجهشت ثم بكيت وانهمرت عبراتي بغزارة، ولعل احتباسها الطويل سمح لها بدفق متحرر فارتفع صوت نحيبي حزيناً فيه أنين وفيه صدق وإخلاص وإحساس باللحظة المطلقة خارج مواقيت الزمن.

اكتشفت في قلبي حبي الكبير لذلك المسجى تحت التراب وأحسست كأنني سأبقى مسؤولاً عن تصرفاتي تجاهه إلى الأبد فهو ملاكي الحارس ولم أتلق من جواب سوى ازدياد وطأة صمت المقبرة وسكون الليل وخفق الأرواح.

امتدتْ يد في الظلام وقبضَتْ على كتفي فالتفتُ مذعوراً، لكنه رجل وكان حفار القبور نفسه.. فأبعدني عن القبر وأدخلني غرفته المليئة بالرفوش والمعاول وقدم لي كأساً من الشاي وعزاني قائلاً: هدئ من روعك يا فتى ..لأنني أدفن في كل يوم أباً أو أماً وأدفن أولاداً وشباباً.

أخذت قدح الشاي من يده شاكراً وتلقفته براحتي وكانت عبراتي لا تزال تنهمر وسقط شيئاً منها في قدح الشاي لكن وجهي بدأ يشرق مضيئاً.

– ٤ –

غيب الثرى والدي، وهزتني تجربة مأساة الإنسان في الوجود التي دخلتها وأنا صغير فأشعرتني بجلال الحياة وتفاهتها.. إن الفهم يلتبس عند الحد بين الشك واليقين، ولا أروع من الموت حد يفصل بين الوهم والحقيقة.

غيب الثرى والدي ، وسيغيبه النسيان.. فمن سيذكره من الناس خلال المائة سنة القادمة؟. ومن سيذكره بعد الألف سنة التي تليها؟. وإذا كان عبقرياً أو مجرماً عتيداً من سيذكره بعد عشرة آلاف سنة. بعد استمرار الزمان المعقود فينا المسلط على رقابنا، المنكفئ خارج مجرتنا في الأجواء العلوية حين يصير يوم الله خمسين ألف سنة مما تعدون.

أليس من السخف أن نكون شيئاً ما أو لا نكون شيئاً ما؟ أليس من السخف أن نبحث أو لا نبحث عن الخلود في هذا العالم؟. أشعر أن الدقيقة التي تدق الساعة

بها تساوي في أهمية وجودها كل حقبات التاريخ، وهي الذروة في هرم الحقبات، ففيها الزمان كله وهي نقطة منه، هي إصبع الفنان الذي يقيس به الكون ليرسمه، هي المطلق الذي كان ويكون وسيكون! أليس ارتباطنا بالمطلق أفضل خلود؟.

أين من يهتف بصراحة أحب خيري كما أحب شري، فأنا كالعالَمِ الذي صنعني.. صنعَهُ خيرُه بالقدر الذي صنعَهُ شرُه، أتحداكم أن تحبوا أخطاءكم مثلي، إنني إنسان لأنني أخطأت ولولا خطيئتي ما كنت إنساناً ولن يصنفها غير عقابكم لي.. سأقف أمامكم لأدافع عن ذاتي، سأقف شجاعاً جريئاً أمام أمي وجيراني والناس وأمام الوجود .. وطالما أنني سأسقط دون معركة .. إذن لا يهمني أن أسقط في معركة.

***

نزلت بعد أسبوع إلى الدكان التي بقيت مغلقة خلال أيام الحزن، وشعرت وأنا أسير في الطرقات بقرف واشمئزاز من العودة إلى تلك الجيرة المفروضة عليَّ. وصلت إلى السوق وكانت الدكاكين مفتوحة ولكن عدداً من رجال الأمن قد انتشروا في السوق كله وتجمع قسم وفير منهم أمام دكان والدي، وقد كانت الدكان محروقة ومحطمة وما بقي فيها من المواد ملوثة بالتراب ووسخة.

بلعت ريقي بصعوبة فقد نشف فمي، وتماسكت وشكلت ابتسامة فوق شفتيَّ لكن نفسي تكاد تتمزق في أحشائي واستبدت اللَغوة بها، خطوت بجرأة نحو الشرطة، فأبعدني أحدهم فقلت بصوت هادئ: أفسح لي الطريق.. أنا صاحب الدكان.

سمع الشرطي بياني فمسكني بشدة ونادى زملاءه الذين تجمهروا حولي ودفعوني في اتجاه السيارة التي كانت تنتظر عند أول السوق. حملتني السيارة وسارت في الطريق العام الذي سلكته في الأسبوع المنصرم إلى المحقق الفرنسي، ولكني استغربت أن أجد الدكان مهدمة ومحروقة وأن أساق ثانية إلى التحقيق.

دُفِعتُ على جري العادة بغلظة إلى غرفة كنت أعرف سلفاً محتوياتها، سأرى المترجم والمحقق وسلة المهملات والسنغالي والخزانة والمبصقة.

نظر المحقق إلي بلوم وقال: أنت نفسك ذو الأسماء الثلاثة عدت بين يدي سأريك عذاب جهنم يا خنزير - البعيد[1] -

سألته دون أدنى خوف منه: هل لك أن تشرح لي سبب هذا الظلم، ألا يكفي مصيبتي في احتراق دكان والدي التي نعول عليها في عيشنا، لأضطهد أيضاً ويقبض عليّ وأساق إلى التحقيق عندك، أي عدل بل أي ظلم لقد كان والدي واحداً من شيوخ البلد المرموقين ولذا ستدفعون الثمن غالياً إذا ما مضيتم في بغيكم ضدي.

قال بلهجة متوعدة : لماذا كنت مستنكفاً عن فتح دكانك، من حرضك على الإضراب ضد الحكومة الفرنسية. لم أبقيت دكانك مغلقة بعد انتهاء موعد الإنذار.

تحرك السنغالي في اتجاهي، ولكنني لم أخف ولعل شجاعتي لأنه لم يبق لي ما أخاف عليه أبداً، لقد فهمت من المحقق أن فرنسة أصبحت خائفة من دكان واحد مغلق حتى ولو كان الإغلاق نتيجة مأساة عائلية. وكان المندوب السامي يكاد يهلك في سبيل جمع الأشخاص لتشكيل الوزارة اسمياً فكيف يترك للإضراب أن يسقطها.

حرقوا دكان والدي إرهاباً للتجار. فقررت أن أتوعدهم وأن أكون شرساً أو أن أعطى تعويضاً عن الكارثة، أجبته ساخراً: إن أعوانك الذين بلّغوك الأمر أذكياء جداً.. فلم يعرفوا بوفاة الشيخ صالح بقدر ما عرفوا أنني محرض.. إنهم يستحقون وساماً على هذا الذكاء ..أليس كذلك؟. سأحدث الناس عن رعبكم من دكان واحدة بقيت مغلقة لأسبوع بسبب وفاة صاحبها؟ وسيعرف الناس تأثير موقفهم السلبي بإغلاق دكاكينهم، ولا أعتقد أنكم ستجدون بعد اليوم إلا إضراباً شاملاً ومستمراً.

حدق المحقق في وجهي ، وحاول السنغالي أن يبدأ بضربي لكنه ابتعد إزاء الملاطفة التي بدأها المحقق قائلاً: انظر يا بن الشيخ صالح سأعوضك عن خسارة الدكان وسأعطيك مرتباً كل شهر ولا أريد منك غير أمر بسيط هو أن تندس بين الناس في المقاهي والأندية والمحلات وتتظاهر بالبراءة أو ببيع أشياء لا أهمية لها.

---

[1] - وضع الكاتب كلمة البعيد حتى لا تصيب الشتيمة القارئ مباشرة.

قاطعته: إنني لا أقبل البحث في أي موضوع يتعلق بالمستقبل قبل أن أقبض تعويض الدكان كاملاً.

أجابني : أريد منك أن تنقل لي أخبار البلد وكلام الناس ومن ثم أعوضك عن الدكان وعن أتعابك.

بقيت مصراً وأفهمته: لن أبحث في أي موضوع قبلما نصبح متعادلين، ولن أسلف حقوقي أكثر مما سلفت، وإذا رفضت فافعل بي ما شئت، ولكن تذكر أنني سأصبح بطلاً في نظر أبناء السوق فأنا ابن الحاج الشيخ صالح والحجة فاطمة.

رضخ مرغماً لشرطي الأول وأمر بإحضار مبلغ لا بأس به اعتبره ثمناً للدكان، فوقعت على استلام المبلغ ورجعت إلى إصراري بضرورة قبض مرتبي سلفاً لأنه لا توجد قواعد واضحة في هذه الأعمال وكنت واثقاً من قبوله فأمر بصرف مرتبي عن شهر فأجبته بعدما وضعت المبلغين في جيبي: عظيم.. اتفقنا ..دلني الآن على منزلك، لأنني أفضل زيارتك هناك.

ابتسم واثقاً من نفسه معتداً بذكائه، وأراني موقع منزله على خارطة فوق الجدار .. وكان منزله قائم في الأبنية الجديدة قرب حارتنا في اتجاه حي الرئيس. وتبادل المحقق مع المترجم نظرات بان فيها ارتياحه للنتائج التي وصل إليها ولعل ذلك مرجعه إلى حداثة سني. فهو لا يشك أبداً في مقدرته على تنشئتي النشأة التي يريد، ولا يشك في ولائي وإخلاصي له فقال مودعاً: إلى اللقاء بعد أسبوعين.

حرصت أن أؤجل الموعد ليتسنى لي أن أجمع أخباراً جيدة، فقبل أن نلتقي بعد شهر، وشد على يدي بحرارة وقال: جرب أن تنشط جيداً حتى أمنحك مالاً خارج مرتبك على الأخبار الهامة، وأنت فتى شهم يجب أن تحصل على مال كثير لأنك ذكي ولا يمكن أن تبرز مواهبك دون مال وفير. انشط وسنصبح صديقين حميمين.

ابتسمت له ابتسامة عريضة وقلت مودعاً بلهجة فرنسية درامية: ميرسي..ميرسي بوكو..أنت أكرم صديق وقعت عليه عيناي.

- ٥ -

كنت محتاجاً إلى مبلغ زهيد لأبدأ حياتي ثانية ولأخلص من لـواذع لسـان أمـي فأنا لم أخبرها بما آلت إليه الدكان من حريق وخراب، حتى لا تجعلنـي المسؤول الأول فصار عليَّ أن أكذب ريثما تخف وطأة الكارثة .

مضيت فرحاً بالمبلغ الذي كان يملأ جيبي، ولـم يخطِر لـي آنئذ الورطـة التـي سأقع فيها في المستقبل مع ذلك المحقق الأحمق، كنت مسروراً ويكفيني أنني ثري فـي هذه اللحظات وليحدث في المستقبل ما يحدث.. سأتمتع شهراً كاملاً وليكن مصيري إثر ذلك إلى الشيطان.

صرفت أيـامي فـي اللهـو، بعدمـا أعطيت والدتـي القسـم الأكـبر مـن المبلــغ، فقضيت أيامــاً جميلـة أتنقل بيـن دور السـينما والمقـاهي وألاحـق الفتيـات، ولـم أشـعر بالاستياء إلا عندما دقت الساعة معلنة بقاء دقائق ليحل موعد المقابلة بيننا.

فكرت في البدء ألا أعود إليه، ولكني خشيت إن فعلت أن يعتبر فـراري جبنـاً فيقرر ملاحقتي ويزداد قسوة في معاملتي، ثم إن المبلــغ الـذي كـان فـي حوزتـي تبخـر تماماً وأصبحت بحاجة إلى مبلغ جديد ..فجزمــت بضـرورة مقابلتـه مهمـا كـان الوضـع وأملت أن تخلصني ثقافتي التي حصلتها من المطالعة المستمرة، ولا أعتقد أن المحقـق نفسه قرأ في حياته العدد الوفير الذي قرأته من الروايات البوليسية والأدبية.

اتجهت نحو منزلـه مغروراً، وطرقـت بابـه واثقـاً ففتحـت لـي خادمـة صغيرة وجذابة .. فقررت أن أبدأ في تمثيل دور اللص الظريف عند عتبة البيت فمددت يـدي نحوها وقرصت نهدها بأناملي قرصاً خفيفاً وسألتها بكبرياء: أين المحقق؟.

وتبين لي أنها معتادة على هذا السلوك من سـيدها فلـم تسـتغرب تلـك الحركـة من يدي بل ابتسمت وقالت بغنج: قليل أدب.. ادخل إلـى الصـالون وانتظره فقد هتـف منذ قليل وطلب مني أن أبلغك بقرب مجيئه خلال نصف ساعة أو أكثر قليلاً.

أشعلت سيجارة وتطلعت متفحصاً المنزل، وكان في مواجهتي باب عليه ستارة مخملية، رحت أنظر إليها بشغف فقد استلفتت نظري وذكرتني بالأبواب التي قرأت عنها في روايات الجيب والمغطاة بالستائر الفاخرة.

شعرت برغبة تدفعني لأمثل دور الجاسوس روكامبول الذي كان يدخل غير هياب إلى المكاتب مفتشاً عن الوثائق الهامة. فقررت أن أدخل إلى الغرفة وأفتش محتوياتها بجرأة، وكنت أفكر في الخادمة الموجودة في المنزل والتي يمكن أن تكشف محاولتي ويمكن بالتالي أن أغلق فمها حسب الروايات بقبلة يرشف البطل فيها رضاب ثغرها العذب البارد، ولا أدري كيف يصف الشعراء رضاب الفم بالبرودة لابد وان للخادمات ولع بالبوظة، ولكن من أين تأتي البرودة لغير الخادمات؟.

اقتربت من الغرفة وأمل العثور على خبر أو شيء له أهميته بالنسبة لأبناء وطني كان يداعب خيالي .. أو لا يمكن أن تكون الغرفة مكتب المحقق فما الذي يمنع وجود أشياء مهمة، أشياء كالتي تكون في الروايات لا تتعدى الصفحة الواحدة ولكنها كالسحر تحقق إنهاء حرب أو سقوط ملكية أو جلاء المستعمر.

فتحت باب الغرفة بتؤدة ومددت رأسي بين دفتي الباب بحثاً عن الوثيقة الهامة التي ستفضح فرنسا وتجبرها على الجلاء. كانت الغرفة غرفة نوم أنيقة وليست غرفة مطالعة ولا مكتب عمل، وكان عليَّ أن أستدرك وقاحتي وأنسحب بسرعة ولكني جبنت ولم أستطع حراكاً لأن في مواجهتي سريراً عريضاً وجميلاً وكانت زوجة المحقق مستلقية فوقه في شبه غيبوبة وهي مرتدية قميصاً شفافاً وكان إلى جانبها على الطاولة قدح مملوءة بالويسكي وزجاجة فارغة منه.

حملقت في جسد عاجيٍّ مضيء وتطلعت إلى فم أحمر رائع ينفث دخان السيجارة حالِماً، كأنه يقبل ثغراً في وهم تخيله، فبلعت ريقي بصوت مسموع حتى أنها سمعت صوت طقطقة حلقي.

التَفَتَتْ بكسل وتراخ نحو الباب فوقعَتْ عيناها على وجهي الصغير المحشور بفضول بين دفتي الباب، فانكمشْتُ قليلاً وتملكني الذعر وحسبت النهاية سيئة بعد وقاحتي، ولكنها غرقَتْ في الضحك بعدما تبينَتْ سمات وجهي فتردد رنين أغرودة نشطة في حنجرتها، فارتاحت نفسي وكانت تقول بلغة عربية مفشكلة: فوتي مجنونه.

دخلْتُ الغرفة فزاولني الذعر وسألتني زوجَةُ المحقق: شو بِدّكْ انتي؟.

وأتبعَتْ قولها بضحكة ثانية فضحَتْ سَكَرها، وتلوَتْ فوق السرير فاتضح شَبَقُها، فجحظت عيناي وأجبت مضطرباً باللغة الفرنسية: أريد أباك.

عرفَتْ أنني أعني زوجها وقد أخطأتُ في اختيار اللفظة المناسبة فأمعنَتْ في الضحك وصححَتْ عبارتي : تريد زوجي.

استغوتني بحركة جسد ونظرة عين وضحكة ثغر، فازداد اضطرابي واشتدت حيرتي إزاء مفاتن جسد ممتلئ لأنثى سكرانة انعطفَتْ على حرفها فارجة بين ساقيها، فقلتُ: وي ..وي .. ما..ما..

فاجأتني وهي تضحك قائلة: عيونك حلوة.

أشرتُ إلى جسدها وقلتُ متشجعاً: تريه جولي..

واصلَتْ الضحك وقالَتْ بالفرنسية: اجلس هنا.

وأشارَتْ إلى طرف السرير فجلسْتُ وتذكرتُ موقفاً مشابهاً قرأته في السابق لأرسين لوبين مع زوجة أحد السياسيين الأثرياء وقد وصف مللها طول النهار في العالم الثالث، فلم يمهلها أرسين لوبين وأخذها في حضنه، فانحنيْتُ على زوجة المحقق ولثمْتُ ثغرها، كما نقر الطير على ذعره ثمراً شهيا[٢].

كانت قبلتي سريعةً دلّتْ على جرأة وعلى غباء في الوقت نفسه، فقد خفق قلبي بشدة واضطربْتُ وشحبَ لوني وأصبح شكلي مضحكاً كرجل فيكتور هيجو الذي أضحكَ العالم كله، فاستمرأتْ الخبيثة هذه التسلية ووجدَتْ فيها مجالاً للترويح عن

---

[٢] – بيت الشعر للشاعرة طلعت الرفاعي.

مللها الصاعق، ولاسيما أني كنت جريئاً مع امرأة محنكة تكبرني بفارق كبير، فقالت بالفرنسية – ميشان – وخشيت ألا أفهم قولها فنطقت بالعربية – أنت ملعونة – ثم استرسلت: لكنك أعجبتني.. انظر .. هيك لا زم تبوس.

تناولتني بين ذراعيها الرقيقتين وأمالتني فوق حضنها واقتربت من وجهي رويداً رويداً " وبفنٍ " .. وكانت تحدق في عينيَّ وأنفاسها تكاد تحرق بشرتي وعطرها يملأ شمي.. وأطبقت بشفتيها على فمي بقبلة أحسست من روعتها أن بدني لم يعد ملكاً لي، وكأنه طائر في الجو وأنا أتفرج عليه، ولا أدري كم من الزمن استغرقته القبلة الفنية الموجهة، فحين ابتعدت عني كنت ما أزال فاقد الذاكرة، وما زال عمق ثغري ولساني يشكوان خدراً، فقد أخدرتهما طراوة لسانها وهو يلوبُ ليُرْوى ويَرْوي لاثباً يماثله في اللواب، وكأنه عطش دائم ملفوح بشمس الشبق، مسحور بشيء غريب حاضر، ولكنه مجهول الوصف حتى على الأطباء والعلماء.

ابتعدت وأسندت رأسها إلى مسند السرير وراحت تراقب انفعالات وجهي وتضحك ثم قالت بالفرنسية ما فهمت منه أن أقبلها حول عنقها وصدرها وتحت إبطيها. فعلت ما طلبت واندمجت في أدائي حتى أنني نسيت زوجها المحقق الفرنسي الأحمق وأنه في طريقه إلى المنزل وكانت تسألني بين لحظة وثانية أن أمرر لساني على حلمتي ثدييها لأنها تستعذب مثل هذه الحركات.

أديت الدور بإتقان أحسد عليه ولعلها لم تحلم أن تجد لدى صبي في مثل سني مثل هذه المهارة، فلم تقاطعني من بعد وتركتني مشغوفة أتابع بشرتها الفضية دون ملل أو كلل.

كنت في الحقيقة أعرف أموراً كثيرة عن طريق الكتب التي سبق ودرستها جيداً، فأنا عارف وجاهل في الوقت نفسه، كمن أنهى الدراسة نظرياً وما زال يحتاج إلى تمرين ليكتشف أسلوبه ويبرع فيه أيما براعة. فلم يكن ينقصني سوى درس عملي واحد في مخبر مجهز جيداً، وما أروع تجهيزات المخبر الذي وضعني على المحك.

أغفت بين يديَّ وكأنها تحلم بأساطير العهود الغابرة، بينما كنت منصرفاً عن كل شيء فيما عدا الأجهزة التي سأتم عليها تدريبي لأتخرج بدرجة ممتازة، فلم أشعر بزوجها المحقق عندما فتح الباب وأصبح بالغرفة إلا بعدما أمسك رقبتي وجذبني بعنف إلى الخلف.

أطرقت رأسي خجلاً اكثر مني خائفاً وزممت شفتي وسكنت دون حركة وكان عبير إبطيها المثير مستولياً على أعصاب أنفي وذوق شفتيها وجسدها البض في لساني وفي لعابي كله.

شاهدت زوجة المحقق ما جرى لي وظهرت كأرنب أمسكه الصياد من أذنيه فراح يحرك أطرافه بذعر، فأضحكها منظري فضحكت دون مبالاة من مشهدي الهزلي وقهقهت وهي تعاود النظر إلي ورجعت تتقلب على السرير وهي تضحك وعادت مفاتنها تظهر للعيان من خلال ثوبها الشفاف من الصدر إلى الظهر، فوبخها زوجها باللغة الإيطالية وردت عليه باللغة الإيطالية، وكان أبناء عدد كبير من الأسر القاطنة في تلك المنطقة المحيطة بمشفى الطليان ومدرستها قد تعلم معاني عدد من الكلمات الإيطالية، وكنت واحداً منهم.

لم أفهم حديثها مع زوجها كاملاً، ولكنها كررت في عباراتها لفظة واحدة مراراً وقالتها بغضب مبررة فعلتها: بانبينو..بانبينو.

وتعني بذلك أنني ولد، فاستنتجت أنها تدافع عن استهتارها تجاه صاحب الملكية، وأنها عللت ذلك بكلمة ولد فلا يوجد مبرر لأن يغار من ولد في مثل سني.

خفت حدة الزوج، فهززت رأسي موافقاً وصرت أصرخ: وي.. موا..بانبينو موا بانبينو.

أفلتني الزوج من رقبتي بعدما اقتنع أنني ولد صغير ولن أخلف له في المستقبل شيئاً من الإزعاج، قال لي : هيا لنتحدث في الصالون.

قلت بغباء: أنا مرتاح في هذه الغرفة، لنتحدث هنا.

سحبني من كمي بشدة لأن زوجته بدأت تخلع ثوب النوم استعداداً لارتداء ثوب السهرة، وتمنيت لو نبقى معها في الغرفة ولا مانع عندي أن يراها معي، لكنني لاحظت أنه يغار من رؤيتي جسمها الجميل، وكأنني لم أشاهدها عارية بعد. قال المحقق بلهجته الآمرة الشديدة : هات التقرير.

أجبته بغباء: أي تقرير؟.

قال لي بحدة: ألم تتعلم الكتابة ..ألم تكتب ما سمعت؟.

تعمدت عدم الفهم فأخذ يشير بيديه إشارات مضحكة ونطق بألفاظ عجيبة ليست عربية ولا أجنبية حتى ولا لغة العصفورة. بدا شكله مضحكاً كثيراً كمهرج على مسرح شعبي يفتعل الحركة دون مناسبة، فضحكْتُ منه وأحسَّ أني أكاد أغشى من الضحك، فجمد فجأة وزورني بغضب وكال لي عدداً من الشتائم بالفرنسية ثم اتجه إلى الهاتف وطلب قدوم المترجم حالاً.

علمت أنني حوصرت وسينكشف إهمالي ولن ينقذني عذر من الذهاب إلى السجن والمثول بين يدي السنغالي. ووصل المترجم بسرعة، كأن الأرض انشقت عنه في الحال، وقبل أن أجد أكذوبة تصلح لتأجيل وقعتي السوداء. بادرني بالسؤال: هيا.. قل ماذا سمعت من أخبار الناس خلال جولاتك في الأماكن العامة.

بلعت ريقي وأطلقت بصري في الأفق كأنني احصر أفكاري في جواب السؤال، وقلت بصوت وقور: اكتب.. مررت بحارة ضيقة فسمعت صياحاً وصخباً شديداً فوقفت وتسمعت.

أصغى المحقق وكأنه يفهم العربية بينما ظهر الاهتمام على وجه المترجم واسترسلت: فسمعت الجدل الدائر كاملاً، وكان خلافاً بين امرأة وابنتها وصهرها، قالت الأم لن تذهب ابنتي معك إلى بيتك حتى تدفع مهرها كاملاً وأريد جهاز عرس يفرش غرفتين على أقل تقدير ..

قاطعني المحقق بعدما استوعب الترجمة إلى الفرنسية: اصمت أيها الفأر.

ترجم لي المترجم كلام المحقق الجديد: إنه لا يسألك عن مثل هذه الأخبار.

قلت له: اكتب ..لدي حادثة ثانية، لقد رأيت صديقي يضايق فتاة في الطريق ويقول لها.." تسلمي لقلبي " . وكانت ترد عليه.." وحُمّى ولاه.. استحي ".

قال المترجم مزمجراً: اخرس ..بس ..نحن نسألك عن أخبار المحرضين في الأماكن العامة، وأسماءهم، وأساليب تحريضهم ونريد أن نعرف من يشتم فرنسا.

أجبته بسرعة: لو وضحت لي منذ البدء لأجبتك بسهولة على هذا السؤال.

قال المترجم : عجل وقل من يشتم فرنسا؟.

وكان المحقق ينظر نحوي ونحوه وينتظر كمن يتوقع الوصول إلى وضع مرض، فقلت للمترجم: السوريون جميعهم كبيرهم وصغيرهم يشتمون فرنسا، راقب مظاهرة واحدة، لتدرك هذه الحقيقة.

قال المترجم: أعطني اسماً واحداً.

قلت له: سأعطيك أسماء كثيرة اكتب ..جوزيف..حسن ..أحمد..كل هذه الأسماء تشتم فرنسا صباح مساء وغيرها أيضاً.

ترجم المترجم ونفخ المحقق وقد نفد صبره وقال: اسمع سنرافقك لتدلنا على رجل واحد يشتم فرنسا ويحرض ضدها.

قلت: لا حاجة بنا لننتقل من مكاننا، نقف أمام الباب ونمسك أول شخص يمر كبيراً أو صغيراً ذكراً أو أنثى وأحادثه و تسمع بأذنيك كيف يعترف بأنه يشتم فرنسا دائماً وسيشتمها بحضورك لأنه لم يستسغ رؤيتك.

غضب المحقق ولم يعد يقدر أن يمسك أعصابه فطلب من المترجم أن يمسك بي لأنه عزم على قصاصي بضرب مبرح. هجم المترجم ليمسكني فهربت بسرعة ودرت حول طاولة الطعام عدة دورات فهاجمني المحقق من الجهة الثانية وأمسك الاثنان بي بشدة وصارا يضرباني صفعاً وركلاً فولولت بصوت مرتفع جداً لعلني أسمع زوجة المحقق فتسترحم زوجها ليخفف من قسوته على فتى بانبينو.

أقبلت زوجته مسرعة وشدت المترجم ودفعته فابتعد ثم سحبتني من بين يدي زوجها فوقفت خلفها وطوقت خصرها محتمياً بها ودار جدل حاد بينها وبين زوجها، أقنعته فيه بأنني أصغر من أن يعاملني بهذا الأسلوب القاسي ودفعته مراراً لتمنعه من الاقتراب مني، ثم أعادتني فجأة بين يديه ونظرت في وجهه متحدية أن لا يرضخ لقرارها فبقي صامتاً ولم يحرك ساكناً، ثم تركتني بين الرجلين وقالت: انتظر.

غابت ولم يمسني أذى منهما، لقد كان لديها سحرها الذي يبدل الأمور، ورجعت وهي تحمل حقيبة يدها وفتحتها أمامه وأخرجت منها مبلغاً من المال، وضعته في جيبي بيدها الناعمة، وقادتني إلى الباب وتابعنا زوجها بنظرات حاقدة وقالت لي عند الباب: ارجع عندي متى شئت قبل الظهر، حين لا يكون زوجي.. أنت ولد طيب وظريف جداً.

وصلت المنزل متأخراً كثيراً كالمعتاد ورأيت وأنا ألج في الزقاق شبح جارنا يخرج من المنزل، فعرفت أنه يواصل رعايته الكاملة لزوجة صديقه الراحل فلم تدهشني رؤيته ولم أستغرب متابعته لشؤون والدتي.. أليس هو صديق أبي الذي يطنب في مدح مآثره فمن أحق منه بوراثة والدي، لقد بان عطفه الحار منذ يوم الجنازة وهاهو يبرهن على استمرار حرارة لهفته وإنها لجهود مشكورة.

دخلت المنزل ومشيت في الدهليز بهدوء وأصغيت إلى حوار أمي مع جدتي ..التي بقيت عندنا وكانت تقول: فقدت زوجك واحترقت الدكان في شهر واحد..إنها مصيبة كبيرة بل كارثة شديدة.

أجابت والدتي: منذ رزقنا هذا الطفل ونحن نعيش في المصائب ولم نشاهد يوماً واحداً جميلاً.. لقد مرضت في الشهر الثاني مرضاً خطيراً ثم تعاقبت المحن على رأسي وكأن الله أراد عقابنا لأننا حاولنا إسقاطه فجعله منحوساً.

قالت جدتي: استمعي يا ابنتي إليّ.. لا تهتمي بما حدث سأنقلك وابنك المنحوس إلى منزلي وسنجد له عملاً أو نعلمه صنعة.

قالت والدتي: كلا سأبقى في المنزل مع ولدي.

أجابتها جدتي: لن يبقى ما معك من المال طويلاً.

فردت والدتي: أعرف ذلك.. لكن جارنا طيب القلب جداً، ولا أريد أن ابتعد عنه حتى تنتهي مدة العدة ويصبح في متناول قرارنا أن نتزوج.

قطعت والدتي حديثها عندما أحست بوجودي خلف الباب وصرخت بعصبية وخوف: ادخل يا خبيث يا شقي كيف تحترق الدكان ولا تعلمني بالخبر.

دخلت فوجدت جدتي مستلقية فوق الأريكة وكانت والدتي تخيط قميصاً لي . جلست عند العتبة وقلت: خشيت أن تتهميني بالأمر فأنت لا تعلمين قسوة حديثك.

نظرت إليَّ وكانت تخشى أن تواصل الحديث فأخوض في موضوع جارنا الذي سمعته كاملاً، لكنها ما لبثت أن حدقت في قميصي ثم قالت: ما هذا الذي على قميصك ..دم ؟ هل تشاجرت مع أحد؟..

اقتربت مني ثم شهقت شهقة استغراب ووضعت يدها على خدها مستنكرة : يا لك من وقح وقليل الأدب! ..لم تفقس البيضة عنك.. روج الشفاه على قميصك ..أو تعاشر النساء منذ الآن ؟ من هذه اللعينة التي قبلت بك؟.

خفضت نظري خجلاً وقلت بصوت هادئ: لولا زوجة المحقق كنت في السجن حتى الآن، لقد أحرقوا دكان أبي واتهموني بالتحريض ضد الحكومة الفرنسية.

قالت: هذا إذن سبب إحراق الدكان، ليتهم شنقوك قبل أن تتعلم الفسق والفساد من تلك العاهرة الفرنسية، هل..؟

هززت رأسي دون أن أجرؤ على النظر إليها فزادها ذلك تصميماً على الصياح وراحت تنهرني بشدة وتفوهت بكلمات جارحة فقررت أن أرد عليها بصفاقة ولو أدى ذلك إلى جرح كبريائها: كنت مضطراً إلى مجاراة زوجة المحقق لتنقذني كما أنت مجبرة على مجاراة جارنا كي ما تجدي بديلاً لك عن المرحوم والدي.

قلت ذلك وتركت الغرفة مبتعداً إلى صحن الدار وأخذت أبكي، فلحقت أمي بي وشاهدتني وأنا أبكي فضمتني فوراً إلى صدرها بحنان لم أعهد مثله عندها من قبل وانتحبت نحيباً يبدد تماسك النفس.

عرفت من بكائها أشياء لا وصف لها سوى كلمة مأساة الضمير، فلم تكن مسايرتها لجارنا عن اقتناع به، ولا عن حاجة جسد ملحة، ولا هو نتيجة غرام صاعق يشل التفكير، وإنما كان من نوع حقير لا تستسيغه نفسي إنه محاولة ضمان مستقبلها مع رجل.. إنه نوع من أنواع الرقيق.

عندما تنتخب امرأة زوجاً لأنه رجل يلبس سروالاً، ليست امرأة ذات صفة إنسانية، إنها عبدة لحدث إنها جارية زفاف ستخونه في أول فرصة..إنني أحترم إرادة المرأة التي تعشق أو التي تستسلم عن شهوة دون عشق أكثر من تلك التي تتزوج على الطريقة الآنفة لضمان لقمة عيشها.

انحنيت وقبلت قدم والدتي، وأنا أقول لها: أرجوك يا أمي انسي جارنا اللعين وثقي بي سأكرس حياتي من أجلك، أنا يا أمي على بساطة مظهري وضآلة حجمي رجل فعلاً، وأنا قادر على إعالتك وحمايتك ولا حاجة لك بغيري أن يكد من أجلك إذا كنت غير معجبة به.

ارتفع صوت نحيبها، وقالت: قطعت شوطاً لم يعد يسمح لي بالتراجع.

أجبتها بصوت حزين: إذن سأذهب يا والدتي راجياً لك السعادة ولن أعود.

اتجهت نحو باب الزقاق وصرخت والدتي: عبير ..عبير.

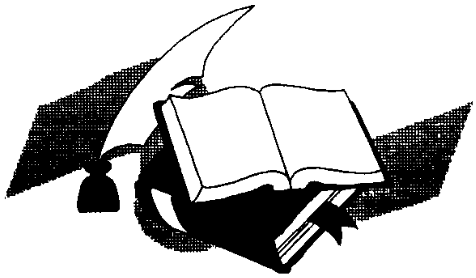
تبعتني إلى الدهليز.. وتهدج صوتها وهي تكرر اسمي. ولكنني خرجت من الباب وذهبت، ففتحت أمي الباب وازداد صياحها فأطل عدد من الجيران من النوافذ. كنت أعلم أن أي التفات إلى الوراء، سيعيدني إلى أحضانها، لأن عبراتها المنهمرة في إثري غالية على نفسي ولأن منظرها وهي واقفة أمام الباب مودعة وحيدها حزين جداً.

أخذت أركض لأبتعد بسرعة، لتخف وطأة صوتها على أعصابي وينقطع عن بلوغ أذنيَّ، إنني أرغب في العودة بكل عواطفي لكن المشكلة ستبقى قائمة.. هي في أول العمر وستضطر إلى الزواج يوماً من الأيام وقد اختارت زوجها فلماذا التضليل؟. ولماذا أقف في طريق اختيارها؟.

وصلت إلى الطريق العام وكانت الساعة حوالي العاشرة ليلاً.

كان في الشارع حارس يتجول وعدد من الناس في طريقهم إلى منازلهم فسرت بطيئاً. حيث لم يعد عندي ما يسرع خطاي

مشيت وحيداً.. فلم يبق لي بيت ولا أهل ولا صديق ولا عمل ولا مورد.. أحسست بالكآبة والخوف.



القسم الرابع

إذا أنت لم تذق التشرد مرة .. فمن الصعب أن أعرفه أنا لك.

إن أبلغ الدموع ليست التي تراق على جثمان عزيز راحل، وليست تلك التي تذرفها العينان فوق رسالة حبيب تنهي وداً كان مقيماً.. وليست عبرات الخاطئة ولا عبرات المنتصر.

إن أبلغ العبرات هي التي تبقى حبيسة في غددها لأن القلب لا يجد ما يخفق من أجله، وهو جامد وسط صقيع التشرد؟. فهل عرفت التشرد.

- ١ -

قررت أن أنام في أحد الفنادق وأن أسافر صباحاً إلى حلب لأعيش فيها، فلعل النحس الذي عاش معي في مسقط رأسي يضل عني أو يعجز عن اللحاق بي إلى تلك المدينة الكبيرة. دخلت فندقاً متواضعاً وسألته غرفة.. فسألني بتؤدة: هل أنت وحدك.

أجبته: أجل وحدي .. فقد تركت زوجتي وأطفالي في مدينة ثانية.

نظر إليّ متفحصاً ثم قال: أ لديك هوية شخصية؟.

أجبته: كلا.. إنني لم أبلغ السن التي تفرض عليّ حمل هوية شخصية.

ارتاب فيَّ فتهجم عليَّ قائلاً: إذا كنت قد سرقت شيئاً فلا تزعجني أو أنك تريد أن تسرق شيئاً من الفندق فلا تزعج نفسك.. لأنني سأبقى ساهراً طوال الليل.

أجبته: أنا لم أسرق شيئاً ولن أسرق شيئاً من فندقك لأنني لا أرى فيه غرضاً لائقاً بتلويث سمعتي.

لم يعجبه جوابي، فزوى ما بين حاجبيه وهددني قائلاً: سأخبر البوليس عنك.

أجبته: أشكرك على لطفك الزائد وليس لدي مانع من أن أنام على حساب الشرطة في المخفر حتى الصباح ريثما يتحققون من أخلاقي العالية وأعتقد المكان هناك أكثر راحة واطمئناناً لي من النوم في غرفك المليئة بحشراتك.

احتار الرجل في أمره وكان غبياً، فطلب أن أتبعه إلى غرفة صغيرة وسألني ونحن نقطع الصالون: أ لديك نقود؟.

قلت له: أجل لدي من النقود ما يكفي لشراء فندقك كله.

أجاب: هل تريد أن تودعها عندي؟.

قلت له: لا أريد حتى لا أفقدها.

نظر إليَّ بغضب وقال: لسنا مسؤولين عن فقدها، وعلى كل حال ساغلق الباب من الخارج بالمفتاح.

قلت له: كما تريد.

رنت عبارة لدي نقود في أذنه رنيناً عذباً ثم إنها كانت تكفي لشراء الفندق. وكنت أتأمله خلسة فأحسست أن ذلك الغبي يملك خبث الحيوان الماهر ولكنه لا يقدر الرجال حق قدرها، وسيعمد إلى سرقتي واتهامي وكانت هذه التجربة قد مرت عليَّ في السوق سابقاً، وفي الواقع لم يكن المبلغ الذي أحمله كبيراً فهو مبلغ بسيط أخذته من زوجة المحقق ومن والدتي، ولكنني مؤمن فلا يصح أن ألدغ من جحر مرتين بل مرة واحدة من كل جحر.

أغلق الباب وأخذ المفتاح معه فبانت خطته واضحة فدفعت السرير خلف الباب

ثم وضعت الطاولة بين السرير والحائط حتى أصبحا معاً كمتراس قويٍّ أو كباب توما لا يمكن خلعه دون خالد بن الوليد و دون أن يستيقظ سكان حارة الجورة وسكارى قصر البلور، ونزلاء الفندق جميعهم.

كنت تعباً فنمت نوماً عميقاً ولم أستيقظ إلا عندما حاول صاحب الفندق دخول الغرفة فصرخت من الداخل بصوت مرتفع: لا تتعب نفسك توجد احتياطات مضمونة.

❁❁❁

ركبت الباص من ساحة المرجة، وكان إلى جانب الباص رجل قذر ينادي بصوت أجش ..على حلب.. حمص حماة حلب.. وكان إذا سكت عن الصياح بدأ خصاماً مع حمال قريب منه، فيتجادلان بقحة وبألفاظ نابية، ثم يعود الرجل إلى الصراخ.. على حلب.. ويلتفت ويشتم الحمال، وهكذا دواليك.. بينما كان الحمال يتجه كلما أقبل راكباً ويخطف حقيبته ثم يعود إلى الخصام مع الرجل وهكذا دواليك.

سألني الحمال: هل معك أغراض؟.

قلت له: نعم ..معي سلة ومحرمة ومفتاح.

قال: إنني أسألك عن الحقائب، أ معك حقيبة؟.

قلت له: لقد أرسلتها بالبريد المضمون، لأنني أكره حمل الحقائب.

تركني مشمئزاً وعاد إلى خصام الرجل.

سألت الرجل: أين مقعدي في الباص؟.

أجاب: اجلس في المكان الذي يعجبك.

اخترت مقعداً في الصف الثالث وكان شاغراً، ولم يمض خمس دقائق على جلوسي فيه، حتى صعد رجل وزوجته، وكان الزوج يرتدي بدلة رسمية ولذا ناداه كل عمال الكراج بأستاذ وأحب الأستاذ مكاني فاختاره وطلب من مساعد السائق بلهجة أنفة وكبرياء قائلاً: ارفع هذا الولد من فوق المقعد.

حدقت في وجهه وكنت أعلم أن هذا الطلب غير معقول فجاء مساعد السائق وقال: قم عن المقعد يا ولد.

نظرت إلى المساعد وأجبته: إنني سأدفع مالاً كغيري ويحق لي أن أختار مكاني.

أجاب المساعد: طبعاً طبعاً.. اجلس حيث تريد في غير هذا المقعد فقد أوصانا من أجله منذ المساء.

عرفت أن الأخ المؤمن يكذب وأن ذلك الأستاذ الأخ المؤمن الآخر يكذب أيضاً فقد شهد بسرعة بقوله: ألم تحجز المكانين كما أوصيتك البارحة مساء؟.

عدت إلى الخلف صفاً وسألته خلال انتقالي: هل هذا المقعد شاغر أم لا؟.

أجابني: إنه شاغر.

جلست.. ولكن الأسروحة تكررت فصولها، وكنت أمام أمرين إما أن أغادر الباص أو أن أقاتل دفاعاً عن حقي أو أن أسكت على مضض. إنني أؤمن بالدفاع عن الحق، ولكن خلاصي من الورطة التي سأدخلها ليس مضموناً.. ولذا قررت بعد استشارة دماغية غير مأجورة أن أغض النظر عن قضية الحق هذه، وأن أتغابى عن العدل، وأن أقبل الاضطهاد الذي فرضه عليَّ السائق ومعاونه، فقد يكون السائق ومعاونه على غير دراية بتوصيات الناس قبل يوم أو يومين، فيغدو اتهامي لهم ظناً، وهم أخوة لي في الدين، وفي الوطن أيضاً، وإن بعض الظنِّ إثم فكيف بالظنِّ كله؟.

انتهى أمري في الباص إلى الجلوس على كرسي صغير من القش وضع في الممر بين صفي المقاعد وقيل: اجلس هنا. وهل يستحق ولد يسافر في بلدنا دون أهله أن يجلس على مقعد؟. أما كان أولى بالناس والسائق أن يبقوني واقفاً؟ حتى يحرم الأولاد السفر وحدهم. أليس اضطهاد الأولاد والتربص بهم خطة ناجعة من أجل تربيتهم؟. أليس عليَّ أن أصمت ولا أزيد كلمة في موضوع الأولاد.. وإلا اجتزت الخط الأحمر. وبلدي كما خبرتها لا تحب الذين يتجاوزون خطوطها الحمر.

مضت ساعة ونصف على توقيت انطلاق الباص كما تشير بذلك لوحة الإعلان، وظل الباص واقفاً، وما القيمة في أن ينطلق الباص بتوقيته أو بعد عشر

ساعات؟. أليست العجلة من الشيطان والتأنّي من الرحمن؟. إن صاحب الكراج مؤمن بالرحمن، وكذلك السائق وكانت جدران الباص مملوءة بالآيات والحكم وإن ينصركم الله فلا غالب لكم، وهكذا صار التأنّي نتيجة منطقية لمؤمن مثل صاحب الكراج وصرنا نحن المسافرين المغلوبين على أمرنا.

انتظرنا امتلاء المقاعد الشاغرة، حتى أتخم الباص بالركاب فوق المقاعد وبينها، وحسبت أن ساعة الرحيل قد أزفت إذ لم أكن أعلم أن السائق سيتخاصم مع صاحب الكراج وسيحرِد عن العمل، لأن صاحب الكراج لم يدفع له على بعض الطرود التي كان أجرها مقبوض من قبله.

دخل بعض الركاب في الوساطة.. سق يافلان.. طلاع يافلان .. طلع بلعنا يافلان..الطريق طويلة إلى حلب.. طلعت روحنا.. صارت الساعة العاشرة..

لم تفلح كل الوساطات بين الاثنين، وظل الباص مع ركابه وطروده ساكناً ينتظر رحمة السائق أو المعلم، حتى قبل المعلم أن يدفع نصف الأجور..وقبل السائق أن يقبض النصف الآخر فقط. وعلمت بعد ذلك..أن الأسروحة تمثل كل يوم لأن المعلم يخشى إن دفع النصف بسهولة أن يطمع السائق ويطالب بالثلثين، كما أن السائق يخاف من قبول النصف حالاً فقد يأبى المعلم إلا دفع الثلث فلا بد من هذه الفصول في كل صباح قبل انطلاق الباص وإلا هل تظنون بسهولة فزنا بلقب العالم الثالث.

سار الباص متهادياً في سوق المناخ وكان يقف أمام كل دكان ليأخذ سلة من الأولى وعلبة من الثانية ومكتوباً من الأخيرة. وما وصلنا آخر البلد حتى تصبب العرق من أجسامنا وحتى صارت الساعة الحادية عشرة.

وقف الباص ظاهر المدينة ليملأ مستودع البنزين ويتزود بالماء لتبريد المحرك، ثم جرى على ذمة من بقي واعياً، وقدرت أن الاتكال على الله خير معين في وسائل نقل القرن العشرين عصر السرعة فتوكلت على الله.

صفر الدركي[1] للسائق فوقف الباص ثانية، وفتش الدركي الباص فرأى بين المقاعد من الناس أكثر مما شاهد فوق المقاعد من الركاب الجالسين. وبدأت مشاحنة عنيفة بين الدركي وسائق الباص.

رفض السائق إعطاء أوراقه في بادئ الأمر ثم أذعن بعد ذلك..ثم دخل في موقف درامي قائلاً جملة من عبارات الاستعطاف والاستجداء، وراح يتحدث عن حالته المعدمة وزوجته المريضة وأولاده اليتامى، وأن والده متوف وأمه أيضاً وعنده سبع بنات لم يتزوجن بعد وليس بينهن واحدة تستطيع أن تغزل وتأكل كما في الحكايات، وليس بينهن واحدة تستطيع أن تخلفه في قيادة الباص لو مات.

رق قلبي له فأخرجت منديلي لأمسح دموعي، وقررت أن أقدم له قطعة نقود لولا أنني تذكرت أنه لا يستجدي عطائي وإنما كان يستجدي أوراقه من الدركي الذي أصر على كتابة المخالفة.

بقيت السيارة واقفة ربع ساعة، ولم تكن كتابة المخالفة تحتاج إلى هذا الوقت الطويل لكن الدركي أصر على كتابة المخالفة دون أن يبدأ بتسجيل رقم الباص أو تسجيل اسم السائق أو حرف واحد من المخالفة. بل كان يصعد من الباب الأول ثم ينزل من الباب الثاني ثم يعود إلى عد الركاب الزائدين، ويصر على كتابة المخالفة وكان السائق يتبعه مستجدياً أوراقه خلال ذلك. ثم انتهت فجأة قصة المخالفة والاستجداء وسار الباص دون وساطة إنسان.

بلغت الساعة الثانية عشرة ولم نقطع من الطريق إلا قليلاً فكان الباص يقف بين آونة وأخرى كلما صاح المساعد.. قف ياعبد.. امش يا عبد..

كانت إلى جانبي صحيفة زيت ترج مع كل وقفة فيتطاير الزيت رذاذاً في الجو ويحط على ثياب الجالسين. وتقيأت امرأة أصيبت بدوخة فأفرغت ما كان في معدتها فوق حضن الجالس إلى يمينها ولاحظ الشخص أنها قد تناولت منذ الصباح فطوراً

---

[1] – كانت قوى الدرك موكلة بالإشراف على النظام والأمن خارج حدود مدن المحافظات.

دسماً ومتنوعاً فيه بيضتان.

صرخ معاون السائق: قف يا عبد لقد سقطت" سحارة " من على ظهر الباص.

أوقف عبد الباص ونزلنا جميعاً إلى الأرض.. كانت " سحارة " خوخ. وقد تبعثرت حباتها على طول الطريق وصاح صاحبها بجنون: ألم أصر عليك أن تضعها في مكان جيد وأن تربطها جيداً.. لقد أجبتني " عليَّ إذا وقعت ".

قال المعاون: شو صار..سنجمعها لك ولن تضيع حبة، أما قلت لك عليَّ.

غضب صاحب الفاكهة وهجم يدوسها بقدمه والمعاون يقول له: يا أخي لا يطلع خلقك..، دع الفاكهة سآكلها إن كنت مشمئزاً منها فالطريق نظيف لأنه جار[٢].. واحمد ربك أن السحارة وقعت ولست أنت.. وإلا ما كانت تفيدك الفاكهة بعد موتك.

اشترك الركاب في جمع الفاكهة، وكان أكثرهم يلتهم واحدة ويضع الثانية في السحارة. انتهت الأزمة واقتنع أخونا أن الحظ حالفه في سقوط السحارة بدلاً عنه، ولأن الشر أزهق وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وسار الباص من جديد.

عرفت في تلك الرحلة أشياء كثيرة، واضطلعت على عقلية السائق ومعاونه وعدد كبير من الذين ركبوا الباص معي من دمشق.. لقد شاهدت الاستهتار الواضح بمصالح الآخرين، ورأيت شهوة الاضطهاد التي تدفعهم إلى ارتكاب منكرات تفوق خطيئة آدم الأصلية التي بقيت وحدها معياراً للشريف وللفاضل.

حذار أن تضعك حاجة ملحة بين يديِّ أحدهم..فترى ألواناً من الاستعمار لا تخطر لبالك. يكفي أن يعلم إنسان أن مفتاح سعادتك بين يديه حتى يساومك عليه بجشع ولؤم حقيرين، لكنه سيبقى محترماً بين الناس لأن ابنته لم تخلع قميصها الداخلي في غرفة باهتة النور، ولأنها من المحصنات فروجهن[٣].

---

[٢] – إشارة ساخرة من الإعتقاد بنقاوة الماء الجاري وصلاحيته للشرب.

[٣] – يتعرض الكاتب في هذه العبارات لمظاهر التّدين التي كانت واضحة في تلك الفترة مع وجود نقص في معرفة أصول الدين الذي ماتزال توجد شواهد واسعة عليه في مواضيع خطيرة.

وصل الباص إلى حلب في الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكان عدد كبير من الركاب قد أصيب بالتواء المفاصل وضاقت أنفاس بعضهم الآخر فهم بين الصحو والإغماء. تأكدت أن رحلة ثانية من هذا النوع في وقت قريب ستغير معالم هيكلي العظمي، فأصبح مسخاً دون حاجة إلى أشعة إكس أو أشعة بنفسجية أو ذرية.

- ٢ -

تجولت في منطقة ضيقة، فلم أكن أعرف كيف أتجه في هذه المدينة الفسيحة. كانت الساعة حوالي الثالثة فقررت أن أدخل مطعماً أقضي فيه الساعات الأخيرة من الليل ريثما يبزغ الفجر فأبحث عن غرفة لإقامتي ثم أطرق أبواب العمل.

دخلت مطعماً قريباً من موقفي الذي كنت فيه عندما خطر لي ذلك، فاستلفت دخولي النظر، وكيف لا يحدق الآخرون فيَّ!. وإنني اصغر رواده إطلاقاً بعد منتصف الليل دون أب أو أم.. ثم أنني لم أكن مشرداً فلا يزال ثوبي نظيفاً ولا زالت خطواتي متزنة دون خوف أو تردد.

طلبت صحن فتة مقادم، وقلت له كما قال سكير كان إلى جانبي: حمض وثوم بكثرة وعجّل ..لأنني جوعان.

لاحظت أن بعض الزبائن قد أتوا بعدي إلى المطعم ولكنهم حصلوا على طلبهم قبلي، وكنت كلما سألته شيئاً أجابني: على النار خاي. وكان كاذباً لأنني سألته أن يمسح الطاولة فقال: على النار خاي. وحين طلبت كأس ماء قال العبارة المعهودة: على النار خاي. وغاب نصف ساعة ثم أقبل ليقول ببرود: أنا آسف لم يعد لدينا "فتة مقادم" أتريد شيئاً آخر؟.

لم أجب من شدة غيظي، بل وقفت ببرود وانسحبت بهدوء..وحاولت جهدي أن أكتم الغيظ، وأن أبدو ساكناً لأن طرف كمي سيعلق قرب الباب بزاوية الطاولة الأخيرة وسيدفعها بشدة ليطيح بالصحون التي كانت عليها.

هوت الصحون وتحطم أكثرها، فأبديت فزعاً وصرخ البائع: العمى بقلبك.

أجبته مستنفراً قواي غير مبالٍ بما يمكن أن يحدث: سهوت بسبب جُوعي.

- ٣ -

تنقلت من الصباح الباكر بين الغرف.. فلم يعجبني بعض منها لصغره والبعض الآخر لاتساعه فبرودة مدينة حلب شديدة كما سمعت، ولم تعجبني غرف متوسطة الحجم لأن المالكة متقدمة في السن وليس لديها بنات في المنزل.

وافقت أخيراً على غرفة صغيرة لا يدخلها النور ولا تنفذ إليها أشعة الشمس لكنها في بيت يحوي عدداً كبيراً من الشموس وعدداً أكبر من الأقمار الطبيعية، وما أمتع الرؤية! والشموس تدور مع الأقمار في أفلاكها بين عتبة البيت وصدر الليوان.

كانت الدار واسمها " الحوش" في الحلبية الدارجة فسيحة واسعة. وكانت تقطن صبية وزوجها في غرفتين، وفي غرفة ثالثة قريب لصاحب الدار وزوجته، وفي الرابعة ثلاث صبايا في أعمار المراهقة المتقاربة، وفي الخامسة رب البيت وأم الصبايا، وإلى جانب كل هؤلاء أقمت في الغرفة السادسة الصغيرة عند الدرج الصاعد في السطح مع معروشات. وتمددت فوق فراش مقبول نظيف.

ارتحت في منزل هذه الأسرة حيث كان كل شيء فيه نظيفاً أيضاً فيما عداي، ولا عجب لأن فيه من السيدات والأوانس أكثر من احتياجه، وكن كلهن لا يتقن سوى تنظيف البيت وطَهْو الطعام.

راقت عشرتهن لي ورقت في أعينهن .. فقد وجدوا فيَّ فتى صغيراً لا إحراج في وجوده معهن في أي حال، فكانت الزوجات والصبايا يظهرن أمامي دون تكلف بثياب المنزل أو من دونها أحياناً.

❁❁❁

وجدت عملاً بسيطاً في مطبعة فقبلت به فوراً حتى لا أستهلك من مالي الكثير، وأخذت خلال دوامي على العمل أتسقط أخبار عمل آخر، ثم لم ألبث أن عدلت عن التفتيش لأني بدأت أتعلم تنضيد الكلمات وكانت هذه الحرفة ذات أجر مناسب بحسب عدد الصفحات المنجزة ولم يكن في حياتي ما يمنعني من الدوام ساعات عديدة لإنجاز

الكثير، فارتفع دخلي كثيراً من المطبعة وصار جيداً مع تمكني من تهيئة الصفحات بسرعة.

سررت بالحالة التي وصلت إليها، فلدي عمل يدر ربحاً يتعدى مصروفي الضئيل، وإنني أعيش ضمن أسرة لم تبخل عليَّ بالصداقة والمودة، وكنت بدوري أساعد الأسرة بالعمل يومِ العطلة في رفع الماء من البئر وجمع الأوراق المتساقطة من الأشجار ونقلها خارج الحوش الذي كان كبيوت حلب القديمة يحوي أشجار اللوز والليمون وبحرات واسعة وآباراً تُملأ من ماء المطر.

وما أجمل الصبايا في يوم العطلة وهن منتشرات بين جنبي الحوش يعملن على إزالة الأوساخ ومسح البلاط الصخري الأصفر الداكن، وقد لمت كل واحدة منهن شعرها بشبكة تزينها لآلئ، وشمرت ثوبها عن ساقيها وربطته عند خصرها، وكنت أجلب الماء من البئر وأتبعهن وأتابع أجسادهن الرخصة برغبة ونشوة، وما أكثر ما قطعنا جدية العمل للهو بتراشق الماء وتبادل النكات، فترتفع تأوهات وآهات من حناجرهن ويطرق سمعي صراخ عذب الرنين ينسيني نفسي حتى لو كان ماء الدلو سيراق على رأسي في غمرة هذا اللعب الطفولي الجميل.

سألتني جارتي أم البنات: ما قصتك يا ولدي؟. أمرك عجيب جداً فأنت صغير وتعيش وحيداً.

أجبتها: قصتي تافهة، وليست غريبة فأنا واحد من المشردين الذين تقابلينهم في كل مكان. مات والدي وفضلت أمي أن تتزوج بديلاً عنه، وأصبحت وحيداً وصار من واجبي أن أعمل بجد حتى لا أبقى مشرداً مثل الآخرين.

قالت بلطف: لا تيأس يا ولدي، ستشاركنا طعامنا بعد الآن، وأقبل منك ما تتنازل عنه من أجرك.

شكرتها كثيراً.. وصرت أعيش مع الأسرة كأنني واحد من أفرادها، صرت أسهر معهم وصرت أخرج معهم، نتجول في الطرقات ونزور الحدائق حتى ظن كثيرون

أنني أخ البنات.

ارتفع عن كاهلي عبء تحضير الطعام، ثم اهتمت الأسرة بغسل ثيابي وكيها وإصلاحها، فقررت ألا أبخل تجاهها، فصرت أنفق معظم دخلي لأدخل المسرة على قلوب أفراد الأسرة، وهكذا تبادلنا الاحسان الذي جمّل حياتنا وأكسبها رونقاً عاطفياً.

عدت إلى المطالعة وقررت أن أخوض غمار معركة شهادة الكفاءة الرهيبة علني أحصل عليها، فيزداد احترام الآخرين لثقافتي، ولاسيما أن معيار ثقافة إنسان في بلدي رتبة الشهادة التي أعطته لقبها، فيكفي أن يلمح شاب عن وجود بكالوريا في حوزته حتى يجد من يرشحه لوظيفة رسمية في دائرة من دوائر الدولة، بل ويرشحه زوجاً لبنت من بناته[4]. حتى لو كان حامل الشهادة كمثل الحمار إذ يحمل أسفاراً. وهو ما لوحظ من بَعْدُ على الاستعمال بتناسب الغباء طرداً مع الشهادات.

- ٤ -

داومت على المكتبة الوطنية في حلب بما بقي عندي من وقت وأخذت أقرأ في مواضيع مختلفة. وكان يؤلمني في نظام المكتبة أنها لا تفتح ليلاً حتى ساعة متأخرة، بينما كانت أغلب دور اللهو والتسلية في الشهباء تظل ساهرة حتى مطلع التماري والسحلب والميمونية[5]. وصار يوم الجمعة هو اليوم الوحيد الذي أستطيع قضاء معظم ساعاته في المكتبة، لكن يوم الجمعة موعد ارتياد الطلاب للمكتبة أيضاً، فلا يكاد يجلس إنسان للقراءة حتى يبدأ أولئك المهذبون بالضحك واللمز والغمز.

ولا تستغرب أن تفتح كتاباً فيقع بصرك فيه على تعليقات الطلاب البذيئة غالباً والسطحية دائماً. وقلما تجد كتاباً واحداً من الكتب التي سبق استعارتها من قبلهم خالية من رسوم أقلامهم، وأغلب الرسوم في مواضيع جنسية. فتدرك من رسم واحد الكبت الذي يعانيه أولئك الشباب، وتدرك في ذات الوقت الفهم الخاطئ لمعنى الحق

---

[4] – تأكيد على أهمية الشهادات في مطلع هذا القرن وحتى بداية الستينات حين صدور الطبعة الأولى.

[5] – هذه أسماء المآكل التي ينادي الباعة عليها مع طلوع الفجر.

والواجب، والأهم من ذلك المعنى الحقيقي للنضال.

إن عباراتهم المكتوبة في الهوامش ستملأ نفسك بالاشمئزاز من وطنيتهم التي يتشدقون بها في مناسبة وغير مناسبة وخاصة إذا أوحت عباراتهم بانتمائهم إلى الأحزاب. ولم لا يحق لهم التعبير عن أفكارهم على أطراف الكتب القيمة! أليس هؤلاء الطلاب أبناء أمة ذات تراث؟. ولكنْ ترى أي ضياع أنساهم (فضل العلم خير من فضل العبادة)، وأي تشتت طبعهم على عدم احترام مكان عام جليل كالمكتبة التي ترقى بقيمتها إلى الصروح الدينية المخصصة للعبادة.

تقدمت إلى فحص الكفاءة بعدما أمضيت عاماً كاملاً في الدراسة والمطالعة، وصارت معلوماتي تفوق ما يحتاجه طالب سيتقدم لفحص البكالوريا، وهكذا كنت واثقاً من النجاح. وقد أديت الفحص بدرجة ممتازة في اليومين الأولين.. ثم تعرضت لمشكلة خطيرة بعد ذلك.

نقل المراقب طالباً إلى المقعد المجاور لي وقال لي: ابق ورقتك مكشوفة لعيني جارك. وذلك بعدما لا حظ دقة أجوبتي وحسن ترتيبي لها. وكان الطالب من أقربائه، فأجبته: لا مانع عندي ..لكنني لا أحب أن أتعرض لنقمة المراقبين الآخرين.

قال: لا تخف..إن لدى كل مراقب من يحرص على نجاحه.

سارت الأمور سيراً اعتيادياً في أول الأمر .. لكن الأستاذ المراقب المحترم، ما لبث أن تخاصم مع رئيس لجنة الامتحان، وحدثت مشادة عنيفة بين مراقبي القاعة، انتهت بحوادث انتقام من عدد من الطلاب. فكانت ورقة امتحاني واحدة من الأوراق التي امتلأت بملاحظات عدد من المراقبين.

صرخت محتجاً: هذا ظلم فادح..أنا لم أحاول الغش، فمعلوماتي تفوق ما تعرفونه أنتم الأساتذة، خذوا أجوبتي ومزقوها، وسأكتب الإجابات كاملة من جديد.

قيل لي: كفاك شغباً وصياحاً .. اجلس في مكانك وإلا أخرجناك من الامتحان.

أجبته: الأمر عندي سيان طالما أنني سأعتبر من الذين غشوا في الامتحان.

دام الجدل والنقاش حتى وصل المفتش، ولما صار الأمر حرجاً بقدومه ولزمه حل سريع وعادل، اصطلح المتخاصمون وقبل رئيس لجنة الامتحان أن يكتفي بإخراجي من القاعة حتى لا يستفيد قريب المراقب، وكان هذا أعدل حلٍ حَسَمَ النزاع.

حملت ما بقي في نفسي من ألم المشكلة راجعاً إلى مكان إقامتي. وشعرت أن الحالة في حلب لن تكون أفضل من حالتي في دمشق بعدما عثر النحس عليَّ ثانية، وسرعان ما سيضع حداً للأيام التي استمتعت فيها بتبسم الدنيا.

يريد القدر أن يدفع بي إلى المتاعب ممتحناً صبري، فحتام أستطيع الصبر!. بدأت أشعر بالهرم وأنا في سني المبكرة، وكان ذلك يعزيني لأن معناه إحساسي المستنفر بالحياة وبوجودي، كشخص يحيا حياة عريضة، أيمكن يا ترى أن تختلف نسبة الأبعاد لدى إنسان بمفرده عن بقية الناس، فلا يعيش اللحظة بل يستغرقها، ولا ينتقل المسافة بل يقطعها وثباً.

عجز فكري عن استعراض الأحداث دون أن ترافقه عبراتي ببكاء يطفئ كل الأحقاد التي استعرت نيرانها في وجداني لتلزمني بصراع حاد. جلست في غرفتي الصغيرة وحيداً ساكناً. وكانت خيبة الأمل تشعرني بالخجل وبإحساس النقص الذي صار عليَّ أن أعانيه أمام زملائي في المطبعة وجيراني. لقد كنت واثقاً من النجاح واعتدت أن أتحدث أمامهم كأستاذ في تلك المواد لا كطالب يخاف من الامتحان، سيسخرون من العالم الجليل وسيلمزون من شخصي ولن أجد ما أجادلهم به أو أرد على استفسارهم، وسوف يزيدهم عرض مصيبتي كما حَدَثَتْ تهكماً على مصيري.

أنا نفسي لم أدخر وسعاً في توبيخ ذاتي! فكيف أتوقع من الآخرين أن يعيشوا قصتي، وأن يفهموا مصابي، إنني نفسي لم أقنع من ذاتي بما أبدت من أعذار.. لماذا حدث الحادث؟. وكيف تم؟. وهل كان في إمكان سواي أن يتفاداه؟.وما موضع تقصيري؟.مرت أسئلة كثيرة في خاطري، ودارت في خلدي، لكنني لم أصل إلى نتيجة وبقي الجواب مجموعة من الأسئلة المتكررة المنغصة، والتي كانت أكثر تعقيداً وأوغل

في الغموض، وكلها كانت تدور في دوامة الاستفهام الذي لا حدود له عن الدور الذي خصص لكل منا في الحياة.

مزقت صفحات كثيرة من الكتب وألقيتها، وكنت أتحسر وألهث وأتقلب فوق السرير وأعاود الوقوف ويعاود فكري التساؤل..هل ينقذ العلم حياً من حادث ينتظره؟ هل تقدر المعرفة أن تخلصه من موقف قادم؟ لقد اعتدنا على أن مجرد توصلنا إلى حساب الاحتمال الذي سيحدث سيجعله ممتنعاً عن الحدوث، وما نراه دائماً هو الذي لم يكن في إمكاننا أن نتنبأ به.

كنت مشتتاً بين أن أكفر وألحد، أو أنحني مطأطئ الرأس لليد التي توجه مصيري رغماً عني. ولم تكن توجد مسافة شاسعة بين الإيمان والكفر، فإما أن أقبل أني كنت السبب في ما أصابني لأن فكري قصر عن حساب التجربة التي سأخوضها وهذا هو الكفر.. ولكنه الكفر الذي يريحني ويخرجني من دوامة اليأس إلى التفكير منذ اليوم في الاستعداد للمعركة المقبلة، وإما أن أقبل بوجود قوة خفية ترسم خط سيرنا في الحياة وأن أرضخ لتلك القوة أؤمن بها، لكنني سأحقد عليها لأن السؤال الجديد.. لماذا عليَّ أنا وحدي من دون الناس أن أحمل جريرة خطيئة آدم.

رفعت رأسي في اتجاه أعماق الوجود، وكان في عينيَّ حقد هائل، ثم اختفى الحقد واخضلت عيناي بالدموع ثم أجهشت برقة ثم بكيت بشدة. وهذا مادار في خاطري وأنا أسكب دموع الطهر والبراءة: ربي الذي في السماوات.. أعلم أنك اطلعت على حقدي وشاهدت عبراتي.. وأعلم أنك تعرف أن الحقد الذي في نفسي عليك هو برهان ساطع على اعترافي بوجودك واستمرار إيماني بقدرتك.. ولكن سؤالي لك، حتام ستبلو إيماني؟. أنا المنحوس الذي خلقته في غفلة غضبك على البشر، فهل أخذت البشر برحمتك، ليقل ضررهم ويخف أذاهم. أم قدر أن تهب رحمة أو إحساساً؟.

توصلت إلى نتيجة واحدة، طالما أن في جسدي قلباً يخفق وعرقاً ينبض وخلية تحس، فعليَّ أن أثابر من جديد لأشق طريقي في حياة تبدو لهواً ولعباً ولكنها

لون من متاهات الصراع الخطير.

سأعود إلى الدراسة بعد فترة استراحة قصيرة وسأجابه كل معارفي بصرامـة، ولا يهمني أن يكون مصير سنتي المقبلة غامضاً و مجهـولاً ومشدوداً بخيط إلـى تلـك اليد الخفية، لأنني سأعيش آمالها العريضـة بعزيمـة ماضيـة، وسـتكون ثقتـي بنفسـي كبيرة أبداً، وسيكون حضوري واضحاً.

- ٥ -

ظهرت نتيجة امتحاني ساقطاً وانتـه الأمـر، وشـاهدني كـل معـارفي فـي حالـة ممتازة، وكأن القضية لا تعنيني فـي شـيء أبـداً، فكنـت أسـخر مـن نفسـي وأقسـو فـي التهجم عليها متفوقاً على كل من سخر أو تهكم. فما يكاد واحد يفتح فمـه ليعلـق علـى سقوطي حتـى أقـول ولـم يتـم عبارتـه: أجـل .. كـانت إجابـاتي فـوق مسـتوى اللجـان المصححة ولهذا السبب صار سقوطي في امتحان البروفيه.

أو كنت أقول له: لو وجدوا حمـاراً أحمـق منـي لنجحـت وسـقط الجمـار. إننـي سأنجح بالتزكية بعد سقوط عشر دورات.

قدر جيراني وحدهـم الجهد الـذي بذلتـه، وقدروا الليـالي التـي سـهرتها حتـى الصباح فلم يسخر أحدهـم منـي، بـل احـترموا صمتـي فـي لحظـات كـآبتي وحـاولوا أن يسروا عنيِّ.

دخلت صغرى البنات إلى غرفتي وكنت قد عدت إلى الاستغراق فـي المطالعـة، فلم اشعر بدخولها، حتى قالت: طبخت والدتي " سليقة القمح " وقد أتيتك بصحن منهـا، هيا.. هيا دع كتابك فلا أرى المطالعة تجلب لك غير الهم.

ظللت صمتاً أتابع القراءة ولم أعرها أي اهتمام، فمـدت يدهـا وخطفـت الكتـاب وابتعدت إلى زاوية الغرفة..بقيت في مكاني سـاكناً وقلـت لهـا: نهلـة - وهـو اسـمها- هات الكتاب.

فردت عليِّ بغنج كتفيها إلى الأعلى ودلال رقبتهـا وإيمـاءة رأسـها ولـم تنبُـسْ

بكلمة فهددتُها قائلاً: هات الكتاب .. وإلا استعدتُه منك عنوة.

ابتسمتْ ونظرتْ بإغراء واضح وكأنها تسألني ألست جميلة، ألا أستحق أن تأتي وتنتزع الكتاب مني بالقوة، وحين تأكدتْ من تهيبي الموقف، حدقتْ في وجهي وقالت: جرب أن تأخذه عنوة.. ستفشل.

اقتربتُ منها ففرتْ مبتعدة إلى الزاوية الثانية، وكانت تطلق أثناء فرارها ضحكها المرح فبدت كأروع ما تكون عليه غادة في انفلات ساحر. حامَتْ حول الطاولة والسرير، وتبعتُها بكر وفر مصطنعين، حتى أمسكتُ يدها من الساعد فارتعشنا معاً وكدتُ أقبضُ على الكتاب ولكنها أخفتْه وراء ظهرها، فطوقتُها بذراعيَّ محاولاً الوصول إلى الكتاب. فاختل توازنها ومالَتْ بقامتها ثم هوَتْ فوق السرير وهويْتُ معها. وأصبحنا في موضع نحسد عليه، فلم أشعر إلا ويدي تداعب شعرها المنسدل على غطاء السرير، ثم اقترب ثغري من ثغرها الذي كان ما يزال يطلق الضحك، وكان أحمر وردياً فلثمتُه مرةً ولثمْتُ خدها مرةً ولثمتُ عنقها مرةً ثم عدت إلى ثغرها فلثمته مراراً، فاستبدل ثغرها الضحك بالتأوهات وتمتم بصوت منخفض: لا يا عبير لا .. سأنادي أمي .. سأصرخ.

لكنها لم تصرخ ولم تنفذ تهديدها، بل تنهدتْ أكثرَ من مرة، وتركتني أداعب نهديها وتوردَ وجهُها وازدادتْ نظراتُها عذوبة ورقة فأضحتْ فاتنة مغرية على التقبيل دون ما تراجع، فتابعتُ تقبيلها فصارتْ شفاهُها ترتعش وبُحَّ صوتها فهو يكاد يسمعُ، وبقيت تتمتم دون وعي وتكرر دون قصد العبارة الوحيدة التي تعطل تفكيرها بعد البوح بها(لا يا عبير لا ..سأنادي أمي سأصرخ).

كانت هذه القبل تجربتها الأولى، ولذا كانت التجربة فوق احتمال إرادتها، فشلت القبل إرادتها، وتلاحقت أنفاسها وضاعتْ بين عُتُوِّ تجدد الرعشة، وتلاشتْ قواها، وغامتْ عن الدنيا برهة، وحين استعادت صحوتها كاملاً، دفعتني بشدة ونهضتْ وعجلتْ بالفرار قبل أن تُحسَب مدةُ وجودها عندي، غادرتني وبقي عبقها في سريري،

وكان عبقُ طهرها فوق أن تبلغه الظنون قبل أن يتنسمه الشم، إنه فوق أن يخطر ببال وردة حلمت بالربيع.

❁❁❁

عدت إلى العمل ورتابة الحياة القديمة ولم يطرأ تغيير على برنامجي إلا أنني صرت أرغب في قضاء وقت فراغي في غرفتي مع نهلة. كنا نسرق القبل عند كل انفراد.. أ سواء كنا في المساء في باحة الحوش، أم في الصباح في المطبخ، وعند رأس الدرج الموصل إلى السطح حيث توجد سقورة تخفينا عن أعين الفضوليين.

ذهبت على جري العادة، ذات يوم إلى المطبعة، دون أن يخطر لبالي ما يمكن أن يكون في انتظاري هناك، كانت المطبعة محاطة بالبوليس، فلم أقترب واكتفيت بالسؤال من بعيد عن السبب، وكان السبب طبع منشور يحرض الناس على الثورة ضد الاحتلال، اشتركت بتحضير طبعه في المطبعة منذ أيام.

تأكدت أن مطبعة الكيّال التي كنت أعمل بها، ستبقى مغلقة بسبب ذلك المنشور حتى يتم التحقيق مع صاحبها، وقد قبض عليه، كما قبض على عدد من عماله، وأصبح الباقون ملاحقين، وأنا من بينهم. اتصلت بشخص تردد على المطبعة من أجل طبع المنشور، وأفهمته أنني بحاجة إلى العمل وإنني على استعداد لقبول أي عمل يتوفر لي، مهما كان نوعه.

عرض عليَّ فهمي بيك - وكان هذا اسمه - أن أقوم بتوزيع المنشور على الناس في أطراف المدينة، مقابل دفعات جيدة من المال بين الحين والحين. قبلت وراق في نظري هذا العمل الجديد، وكنت أكره كمعظم أبناء وطني، تلك الوجوه المتغطرسة، فانخرطت في النضال مع عدد من الشباب، وكنت أجرأهم على الإطلاق، فقد مللت من العيش في النحس الذي يلاحقني وينغص عليَّ حياتي.

أفادتني مطالعاتي الغزيرة في العمل السياسي فلم تمض فترة حتى صرت معروفاً في أوساط الطلبة فلا يكاد يُعْلَنُ عن مظاهرة حتى أظهر على رأسها محرضاً وخطيباً متفوهاً، وكان يقبض عليَّ في كل محاولة أشترك فيها، ولم يكن يتم اعتقالي

نتيجة غباء مني بقدر ما كان يتم نتيجة حظي السيئ دائماً.

ألجأ هارباً إلى حارة عريضة يوحي عرضها بأنها حارة نافذة، قادرة على أن توصلك إلى دنيا القارات الخمس، فأجدها بعد منعطفين مغلقة وينتهي الأمر باعتقالي، أو أطرق عند الضيق الشديد باب منزل طامعاً بحمايته، فيفتح الباب شخص بلباس الفرنسيين الرسمي، ويتبين لي أنه موظف عند فرنسا.

ساومني المحقق في حلب أن أكف عن تحريض الطلاب والتعرض للمدارس مقابل منحي وظيفة بمرتب ممتاز أقبضه ولا أعمل شيئاً، فرفضت طلبه .. وعدت إلى الشغب بعد الإفراج عني، ولكني لم أجد مساندة قوية كما كان الحال سابقاً، وعندما سألت عن زملائي قيل لي أنهم ذهبوا إلى وظائفهم.

ألقيت عدداً من المتفجرات في الساحات العامة إرهاباً، وقبض عليَّ. وكان حادث إلقاء المتفجرات آخر عهدي بالعمل السياسي، فقبعت في السجن، ولم أجد السجن مكاناً مرعباً بل وجدته مكاناً هادئاً جداً، فهو خال من الضجيج، وبعيد عن المثيرات، وأصلح مكان للمطالعة والتفكير، ولا وجود للنحس فيه، لافتقاره إلى طمع الناس وشراهتهم.

استرحت في السجن، ولكن النحس رصدني من خارجه فسعى إلى إطلاق سراحي منه، فلم تطل إقامتي فيه وخرجت قبل صدور أي حكم، ولم يكن تحريري منه رأفة من القاضي أو السجان بل لأن الاستعمار خسر المعركة وتم الجلاء.

عدت إلى الأسرة التي انقطعت عن الاتصال بها فترة طويلة، فوجدت كل شيء قد تغير، قابلت أكبر الفتيات سناً وعلمت منها أ ن أختها الوسطى قد تزوجت أولاً، ثم تزوجت الصغرى نهلة أثناء غيابي عنهم، وفرحت الكبرى برؤيتي وقالت: افتقدناك .. وخشينا أن نسأل عنك، لقد بكت أمي مراراً من حزنها عليك، وبكينا كلنا.

ظللت صامتاً ساكناً.. أحسست أن الحوش كئيب جداً دون طيف نهلة وبسماتها، وتذكرت أنني لم أعاهدها على الحب والزواج، وكيف كان في قدرتي أن

أعاهدها على شيء من ذلك وليس عندي ضمان مستقبل من أي نوع، ومازلت فتى اكتملت آلامه قبل أن تكتمل آماله.

جاءت الأم قبل أن أغادر.. وضمتني بحنان حتى شعرت بضمة أم رجع ابنها بعد غياب طويل. وأصرت الوالدة على بقائي، فرفضت موافقتها، واكتفيت بقبول دعوة الغذاء وغادرت هاجراً. وأظنها خمنت السبب حين ضبطت بعض العبرات في عينيَّ وهي تريني صور زفاف نهلة.

❁❁❁

عدت إلى فهمي بيك الذي احتل مركزاً رفيعاً بعد الاستقلال، وسألته وظيفة أعيش منها وكان واحداً من الذين اطلعوا على ما قمت به من نشاط في أيام النضال، واعتقدت أنه سيكون خير من يساعدني في أزمتي، فجاء جوابه بالرفض من أجل المصلحة العامة، معللاً ذلك بأن النضال واجب مقدس ولا يحتاج الواجب إلى أوسمة أو مكافآت، وهو لن يراعي خاطر أي إنسان.

أجبته غاضباً: إن قسماً كبيراً من السياسيين في الساحة لا يزال يتاجر بأمجاده الغابرة ويساوم الشعب طالباً معاملة خاصة مقابل نضاله ضد الاستعمار، وأنا واحد من الذين قدموا تضحيات جسيمة ويحق لي أن أعيش موفور الكرامة في وطن خلصناه من المحتل.

قال: صارحتك يا عبير.. ولا مجال للجدل، وعليك أن تحترم المصلحة العامة.

أجبته: أنا جائع، ولا أظن للوطن مصلحة في أن أظل جائعاً.

قال: سأعطيك من جيبي الخاص مبلغاً يساعدك ريثما تجد عملاً لك في المطابع.

أخرج مائة ليرة من جيبه وقدمها لي وهو يقول: أرجو ألا تزعجني بطلباتك ثانية لأنني سأمتنع عن مقابلتك.

مزقت المائة ليرة وألقيت بقصاصاتها في وجهه وخرجت دون أن أغلق الباب وكنت أعلم أنه أجبن من أن يعترض سبيلي على الرغم من وظيفته العالية.

أجبِرت على التسكع في الطرقات بحثاً عن عمل أو في سبيل إضاعة الوقت هرباً من البقاء في الغرفة التي لم أعد أقدر على ارتيادها في وضح النهار أو أول المساء. ساءت أحوالي كثيراً رغم أنني كنت على استعداد للقيام بأي عمل يطلب مني دون تكبر أو خداع.

كان يصادفني عابر سبيل يسأل عن حاجة فأقضيها له مقابل أجر زهيد، أو أقوم بغسل السيارات أمام النوادي والملاهي فأحصل على مبلغ يمسك رمقي.

جربت في تلك الفترة أعمالاً منوعة، تعود أغلبها إلى- باب التسكع- قسم التشرد- فرع البطالة، وكنت أراقب الناس المترفين وغير المترفين ومن راقب الناس مات هماً وكنت آمل أن أموت هماً، ولكنني ظللت حياً فازددت معرفة بالناس، وكم فيهم ذئاب شرسة وحملان وديعة، وفيهم آفات وعاهات لا حصر لها، ولعل هذا ما جعل داروين يتحدث عن الأصل الحيواني للإنسان لكثرة ما شاهد عند البشر من طباع تشبه سلوك الحيوانات وكشفها في أعماقه على نقائضها.

جرب أن تراقب من حولك، ستجد بينهم من يسلك في تلويه الأفعى وفي تبديل أفكاره من وقت لآخر ألوان الحردون، ومن يواجهك بوجه حمار، أو يحمل بين كتفيه رأس ثعلب. وقل أن تعثر بينهم على من يذكرك بالحصان والنسر والأسد.

اكتسبت خبرة طوال تشردي بين أحط الأماكن وأرفعها. وكان يسعدني أن أقابل رجلاً ذكياً لأنني أشعر بالرضاء على ما أربح منه من مال، أما الأغبياء فكنت أغتاظ منهم ومن أموالهم.

قابلت صاحب سيارة خبيثاً وماكراً وثرياً.. قال: أنت لم تنظف سيارتي جيداً، أنظر كيف يملأ الغبار زواياها في كل مكان. ولذا فإنني قررت ألا أدفع لك شيئاً.

قلت له: سأعيد مسح الزوايا ثانية.

قال: لا أريد لأنني لا أظن أنك تفهم بالأشياء النظيفة .

وضغط على كلمة أشياء نظيفة وسكت، وحدقت في وجهه مستجلياً خواطره فخمنت أنه يقصد أشياء غير نظيفة على الإطلاق فقررت مسايرته، فقلت: الأشياء النظيفة نادرة في هذه الأيام، وهي تكلف كثيراً إذا وجدت.

ردَّ قائلاً: لا يهمنا السعر خاي.. مهما كانت غالية، على شرط أن تكون نظيفة حقاً.

أجبته دون تردد: فقط مائة ليرة.

قال: لن أدفع حتى أتحقق من صدق قولك.

أجبته: لن أتحرك قيد أنملة قبل أن تدفع المبلغ كاملاً.

كانت الخمرة قد لعبت في دماغه ولذا لم يجادلني طويلاً بل أخرج من جيبه المبلغ ودفعه لي.. فصعدت في السيارة، وكنت أعرف بيتاً لخياطة القمصان، قررت أن أوصله إليه ولا تهمني النتيجة بعد ذلك لأنني سأفر قبل أن يدرك الواقع.

طرقت الباب ففتح صديقي الخياط فسلمت عليه وقلت له بصوت عال: هذا الأخ ثري كبير وكريم جداً، وهو مغرم بالأشياء النظيفة كالتي عندك، وقد جئتك به لتعتني بتفصيل قميص يليق به.

لم يجد كلاهما كلامي مستهجناً، فقد علم الخياط أن صاحبي يريد تفصيل قميص، وخمن الذي رافقني وأعطاني المبلغ أن عبارتي لغز بيني وبين الخياط للأشياء النظيفة الموجودة عنده، ولاسيما حين نظر متطاولاً برقبته، فرأى الفتيات النظيفات اللواتي كن يتدربن عنده على كار الخياطة.

تركتهما وخرجت في أول فرصة سنحت لي. ولا أعلم ما حدث بينهما ولكنني استطعت أن أتكهن بالمنظر المسلي عندما شاهدت الثري بعد يومين معصوب الرأس، وقد هاج وماج وهجم يهددني صائحاً: تعال أيها المحتال.

اقتربت منه وقلت: أنا المحتال أم أنت أيها الغبي الأبله، ألم تحاول أن تسرق أجر تنظيفي سيارتك.

قال: اخرس سأشكوك إلى البوليس.

ابتسمت وأجبته: حبذا لو تفعل فأقص في المخفر ما عرفته عنك. إلا إذا كانت سمعتك أرخص من مائة ليرة، وإن كنت لا أراها تساوي أكثر من هذه القيمة.

أرغى وأزبد وغادرني محتقن الوجه، بينما كنت أضحك بصوت عال.

- ٧ -

مرت عليَّ أيام قاسية، قضيتها فوق الأرصفة وتحت وابل من أمطار الشتاء، وعانيت الكثير من برد الطقس القاسي في حلب، وكنت أشعر طوال أيام تشردي أنني قادر على الخصام والجدل ولكني لم أجد الشجاعة مرة على التسول وطلب الصدقة.

وقفت سيارة بحذاء الرصيف الذي كنت أسند حائطه بظهري دون تعويض من البلدية أو من مالك الدار. وغادرت السيارة زجاجتا عطر ملأتا الجو بأريج عطرهما. اعتدت أن أتابع النساء حين خروجهن من السيارة، حين يكون الثوب ضيقاً وقصيراً فيصير المنظر شيقاً وممتعاً. ولكني فقدت تلك العادة نتيجة الحالة السيئة التي وصلت إليها. فلم تعد الساق التي تكون أول ما يرى من المرأة عند نزولها تغريني على النظر، ولم يعد فرار الثوب فوق الركبة يشدني كالأول، حتى مزارع الفل التي تظهر على ذمة الشاعر نزار قباني، لم يعد لها ذاك التأثير في خاطري، ولعل السبب جوع معدتي التي لم تعرف الشبع بوجبة كافية منذ أمد طويل.

فقدتُ عادتي في تتبع مزارع الفل، لأنني صرت بحاجة إلى الطعام والمأوى والدفء. لكن الزجاجة العطرية التي درجت أمامي على الرصيف مع صديقتها، شدت أنفي بالرائحة الرائعة فواصلت تنسم العبير المنتشر من الثوب مع كل خطوة ساق وارتجاج ردف ونواس خصر.

دخلتا مخزناً فخماً .. ثم خرجتا تحملان أشياء لطيفة، ولزمهما أكثر من جيئة وذهاب، حتى أنهيا نقل مشترياتهما. عادتا إلى السيارة وهما تطلقان ضحكات أرستقراطية منغمة، توحي بالشبع والطمأنينة والرفعة. ولم تلحظ كلتاهما غياب السائق

في الأول، بسبب انهماكهما في ترتيب المشتريات، وكان السائق قد ابتعد قليلاً بعدما ملَّ من انتظارهما.

تطلعت إحداهما في اتجاهي بعينين غزلانيتين، فاشمأزت نفسها من رؤية منظري بشعر أشعث وثياب مهلهلة فأبعدت نظرها لكنها عادت تنظر إليَّ وقالت: يا شاب تعال..

لم أصدق أن نداءها عناني فتلفت خلفي مفتشاً عن غيري، فلم أر أحداً وسمعت صياحها يتكرر: يا شاب أنت.. تعال اقترب..

اقتربت من السيارة حذراً غير مصدق، وخشيت من أن أسمع شتيمة أو كلمة نابية تثير غضبي، فسألت: نعم أتقصدينني؟.

نظرتها عن قرب فرأيت وجهها الجميل وملامحها التي أوحت لي بطيبة نفسها، فاتبعت سؤالي بدعابة لعلها تجزيني ببسمة ثغرها الأنيق وبعطاء ثمن رغيف من كفها البضة: لبيك لبيك ..عبدك خادم بين يديك.

ابتسمت وقالت: هل رأيت السائق؟ أين ذهب السائق؟.

أجبتها: كيف أعرف خبراً عن السائق، وعيناي لم تفلتا ليلى هنيهة واحدة.

تهلل وجهها بالبشر ثانية والتفتت وقالت لرفيقتها: ألا ترينه يشبه قيساً في آخر عمره.

قالت الثانية: دعيك منه أراه مخبولاً.

أجابت: وهو ما جعلني أشبهه بقيس.

وعادت لتطلب قائلة: اسمع.. اصرخ باسم أحمد بصوت عال وسأعطيك فترضى.

أجبت بسرعة: كان بودي أن أنادي باسم أحمد لكن ثلاثة أسباب تمنع لساني عن النطق، أولاً صوتي بشع وسيقبض البوليس عليَّ إذا صرخت بتهمة الاعتداء على الغير، وثانياً لو أن لدي قدرة على الصراخ لفضلت أن أستفيد منها في التعبير عن

جوعي وحظي السيئ. ثالثاً أفضل أن يطول غياب السائق ليتيسر لمثلي أن يتمتع بالنظر إلى غادة جميلة قلما يرى مثلها في الطريق.

ضحكتا كثيراً وردت الثانية مبدلة رأيها: أنت فيلسوف .. ظاهرك لا يدل بتاتاً على باطنك.

بينما قالت الأولى: كلامك عذب يدل على خلاف حالك.

أجبتها ثانية بسرعة: كلامي من وحي عينيك ومن إلهام الألق في حدقتيهما.

بدا على وجهها الإهتمام وسألت: ماهو عملك؟.

قلت ببساطة وكأني أصف إنساناً لا علاقة لي به: أنا غريب قدمت حلب من سنوات، وصلت لسوء حظي بصعوبة إلى رتبة مشرد ثرثار. أحتال أحياناً لأحصل على طعامي.

قالت: ما رأيك في عمل مريح بمكان مريح.. على أن تكون مواظباً نشيطاً وأميناً.

قلت: أتمنى..لأنني لست كسولاً.

مدت يدها البضة ذات القفاز المخملي الأسود وقدمت لي بطاقة وقالت: هذا هو عنوان والدي، قابل والدي متى شئت في صيدليته وكن رصيناً جداً لأن والدي لا يحب المزاح ولاسيما خلال العمل. ستجد أجرك زهيداً في البدء ولكنه سيزيده لك إذا أتقنت عملك.

أجبتها: سأقبل مهما كان الأجر لأنه أفضل من التسكع في الطرقات. وإنني واثق من رضاء أبيك عني في المستقبل، ولكن.. أخشى من أن أبدل رصانته.

تناولت البطاقة وضحكت، وكان السائق قد حضر خلال محاورتنا القصيرة، فتحركت السيارة ولوحت بيدها، وبقيت جامداً على الرصيف. كنت أنقل بصري بين منعطف الطريق الذي غيب السيارة عن بصري، وبين البطاقة التي بين أصابعي. أحسست في قلبي سروراً يدفعني لأن أتنسم عطر البطاقة وألثمها بخشوع ..سأعمل

عند والد الفتاة التي بقيت ابتسامتها في خاطري، ولم تقدر الأيام أن تمحوها من ذاكرتي.

- ٨ -

قابلت الوالد المحترم في صيدليته، وكانت الصيدلية مؤلفة من قسمين، يحوي أولهما الأدوية الجاهزة ويحوي ثانيهما المخبر الخاص بتحضير الأدوية الآتية. كان الوالد جالساً خلف عرشه فدعاني إلى داخل المحل، حيث يوجد المخبر وكانت غرفة التحضير واسعة وتحوي طاولات ومقعداً مريحاً وتدل إجمالاً على الترف فهي مزودة بأكثر من وسائل العمل.

بدا لي من نظراته الفاحصة أن في القضية سراً غير حكاية العمل، وكان يتابع منظري المنفوش كديك بعد خصام على مذبلة، ويهز رأسه وكانت تلك القذارة وذلك الشحوب في وجهي يوحيان إليه بأفكار كثيرة، ولعل من الغباء أن أتصوره يفكر في تزويجي ابنته ..فالأولى طردي آنئذ حتى لو كانت ابنته المدللة والوحيدة - كما عرفت لاحقاً- قد وقعت في هيامي على أسلوب الحكايات القديمة. فعجزت عن كشف سر اهتمامه، وانتظرت أسئلته السخيفة المعروفة في مثل هذه المناسبة.

قال لي: ما اسمك؟.

أجبته الجواب المعتاد دون تلكؤ: لي ثلاثة أسماء، أولها عبير وآخرها قذاعة.. وقذاعة هذا رجل مغوار وشاعر عربي أصيل كحصان أصيل يعجبك كثيراً.

أعرف أنني خدعته لأن آخر أسمائي كان منحوساً وليس قذاعة. فأعجبه الاسم الأول و قال: انظر يا عبير، أريد موظفاً ماهراً، هل تتقن الكتابة والحساب.

قلت له: أنني أتقن الكتابة والحساب، ولدي إلمام لا بأس به باللغة الفرنسية.

أجابني: هذا جيد، لكن مظهرك لا يدل على معرفتك.

قلت له: إن عدداً كبيراً من الناس لا يدل مظهرهم على دخيلتهم.

حدق في وجهي خوفاً من أكون قد عنيته بعبارتي فبقي وجهي صامداً أمام

نظرته محتفظاً بقناع بلاهة دون خبث حتى لا يتطرق الشك إلى قلبه، فسألني: هل أنت متزوج؟.

أجبته: كلا ليس رسمياً.

سألني: هل لديك ميول خاصة.

قلت دون حذر: عندي ميول كثيرة..أولها المطالعة وآخرها النساء.

أضحكه جوابي و لمعت عيناه ببريق خاص وكأن جوابي وافق هوى في نفسه أكثر مما عرف عني، فقال دون تحفظ: اسمع يا عبير.. سأساعدك بكل قواي..لأنك أعجبتني ستتعلم تدريجياً إدارة صيدليتي وستصبح شخصاً معتبراً ، وإذا نفذت عملك بدقة وأمانة فأعدك بأن أزوجك من فتاة جميلة تليق بمكانتك القادمة.. ما رأيك يا عبير.

لم أدر هل كانت ابنته الفتاة التي عناها بحديثه، ولكني لم أجسر على الاعتقاد بصحة هذا الخاطر، فهو تفاؤل لا يوجد ما يبرر الركون إليه. فشكرته على نواياه الطيبة، وعاهدته على الوفاء، وتحدثت مع ذاتي أسألها عن الدوافع الخفية التي تجعل شخصا غريباً يعاملني بلطف زائد. لاشك أنه سر في شخصي وقع في نفسه موقعاً حسناً وستجلو الأيام غموض دوافع الموقف.

استغربت عطفه الأبوي حتى كدت أسأله إذا كان قد زار دمشق قبل عشرين عاماً وهو عمري الذي صرت فيه، ولكني عدلت عن السؤال، فهو سخيف وغير محتمل أن يكون قد عرف أمي. فالمسكينة لم تنجب سواي.

داومت بانتظام على الصيدلية وحرصت حتى أتعلم أسرار تلك المهنة، فما وجدت فيها غير الإجهاض سراً مغلقاً وفناً لذيذاً ومهنة رابحة. لكنني استنكرته بعدما تعلمته ولم أحاول القيام به.. فقد أصبت منه في أول حياتي، فما أحرى بي، أنا الذي شقيت منه طويلاً أن أجنب الناس ويلات ولادة منحوس آخر.

عرفت أسراراً كثيرة خلال عملي.. عرفت الأشخاص ذوي الأجسام الضخمة

العاجزين عن إرضاء زوجاتهم.. وعرفت أن أي بخيل مجادل يمكن أن يناقش في ثمن غرض يشتريه وحتى في ثمن دواء يلزم صحته؛ إلا الذي يفيده من الناحية الجنسية فإنه ينقد حقه كاملاً دون مساومة. وتعلمت أن حب الحياة لدى الأشخاص متين. وأن الإنسان يذكر ربه وهو مريض أكثر مما يذكره وهو صحيح البنية. ورأيت أناساً يرتمون على أعقاب الأحذية مقابل جرعة من المخدرات. وخبرت عمل الصيدلي المرهق من الصباح حتى المساء في دوام يقرب من يوم كامل. واطلعت على المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه بين ملاحظة السموم المتشابهة والحذر من المقادير المختلفة وهي عظيمة حقاً، فإذا قام بعمله بإخلاص استحق أعظم تقدير، فليست مهنته كغيرها من المهن وليست القضية ربحاً دون خطر.

- ٩ -

فاجأني الصيدلي بدعوة إلى عشاء فاخر بعد مدة وجيزة. ولاحظت أنه أغدق كرماً حاتمياً على الوليمة على غير عادته في الصرف حتى على بيته، فجمع على المائدة ما لذ وطاب من المآكل التاريخية وما طاب من الشراب الذي كنت أجهل أنواعه، وكنا وحيدين وصار يعاملني بلطف شديد أخجل تواضعي حتى حسبت نفسي صاحب الصيدلية وحسبته موظفاً عندي يسعى لإرضائي، وانتابني الوهم طوال السهرة فناديته مراراً بصوت مرتفع، فلم يرتبك ولم يغضب.

انتقلنا إلى الصالون بعدما انتهى العشاء ولم أعرف حتى ذلك الوقت لمن هذا المنزل الفخم، فكانت حكايتي قريبة من حكايات ألف ليلة وليلة، وتأكد ظني حين دخلت صبية في مثل سني أو أصغر بسنة واحدة أي كانت في التاسعة عشر عاماً من عمرها، ذات قد مياس وخصر نحيل وطرف كحيل ووجه صبوح وفم أرجواني، تسقيك من فمها خمراً، بل أشهى من خمرة معتقة في دير صحراوي. قد صاغها الباري فأبدع في خلقها أيما إبداع - جلت قدرته- فهي مخلوقة من فضة ومن بلور نور على نور، يكاد وجهها يضيء الصالون ببريق بشرتها ولمعان حدقتيها، وتبسمت فكأن الزنبق تفتح

عن مباسم أو أن الفستق الحلبي يتقشر وتحدثت فكأن الشحرور غرد.

كنت سكران وازددت سَكَراً بعد رؤيتها، فما لك في سكرين من بد، فتمايلت طرباً ونسيت في تلك اللحظة معلمي ورحت أغازلها وصرت أقول:

دقت الساعة وانشق القمر...... من غزالٍ صاد قلبي ونفر.

ثم غابت فأظلم المكان واستولى عليَّ وجوم ظاهر.. قال معلمي: ما رأيك لو زوجتك هذه الصبية ثم أعطيتك هذا المنزل لتعيش معها فيه.

أجبته: لا أدري أ حالم أنا، أو أنك تمزح يا سيدي.

قال: إنني جاد أكثر مما تتصور، ألم أعدك منذ لقائنا الأول أن أزوجك من فتاة جميلة وأن أجعل منك شخصاً معتبراً بين الناس؟.

أجبته: نعم .. ولكن لماذا اخترتني شخصياً لهذه السعادة الغامرة، إنني لم أتصور أنك ستفي بوعدك يوما ما.

قال: اسمع يا عبير.. لقد رتبت كل شيء وها هي عروسك وهاهو منزلك، ولم يبق إلا موافقتك.

قلت له وأنا اضحك من فرحي ومن سكري: أي حمار يرفض هذه النعمة، كيف تنتظر مني ألا أوافق على سعادة مستقبلي بعشرة أصابع، وهل أطمح إلى زوجة أجمل أو أنبل محتداً من هذه الفتاة في مقبل الأيام. وإنما ما زلت مستغرباً، إنني معجب بنفسي وشديد الثقة بها ولكني لا أفهم مصدر إعجابك بي ثم كيف ستقبل هذه الفتاة أن تتزوجني وهي كما يبدو غنية وجميلة ولم يسبق لها أن رأتني، إنني مازلت أشك بمزاحك أو بوجود سر تخفيه عنيِّ.

أمسك يدي وقال: انظر .. لست محتالاً لأخدعك سأكشف لك واقع الأمر حتى أطلعك على الحقيقة وتصدقني، هذه الفتاة جميلة كما قلت وغنية كما قدرت، لكن عيباً بسيطاً جداً فيها.

قاطعته قائلاً: أهو مرض مزمن سأفديها بحياتي.

أجاب بسرعة: ليس مرضاً.

هززت رأسي مستفهماً فقال: هي حبلى قليلاً بقدر رأس الدبوس.

طارت السكرة من دماغي وحدقت في وجهه، وقد فاجأني الخبر فبان ذعر شديد في تقاطيع وجهي، لقد وضح لي الآن سبب عطفه الأبوي وسبب إغداقه عليَّ كرماً حاتمياً لقد اختارني كغريب عن البلد لستر فضيحة كبيرة في العائلة.

سألته: هل هي قريبتك؟.

أجاب: إذا كنت ذكياً فلا توجه لي سؤالاً واحداً، إما أن تقبل أو ترفض وترجع حيث كنت تتشرد في الشوارع وتنام في الإسطبلات، إنني الملوم لأنني فتحت لك صدري وحنوت عليك ولكنك لا تستحق العطف أبداً.

ثم استرسل بلهجة مأساوية: افعل خيراً تنل شراً.

قلت: أمهلني، سأفكر في الأمر.

قال: لا تنسى أن وضع الفتاة صعب جداً، لا يحتمل مماطلة أبداً، ستوقع تعهداً في هذه الليلة يربطك بالطفل أو أنني لن أناقش الموضوع معك غداً وتعتبر نفسك مفصولاً عن العمل منذ الآن.

احترت في أمري كثيراً، فليست حكاية الزواج هذه من السهولة بحيث أستطيع أن أقدر على أن أبت فيها برأي عاجل، ولا سيما أنني لم أختبر تجربة من هذا النوع، ثم إنني تألمت كثيراً، حيث تبين أن إعجاب ابنته بي، لأنها عثرت على مغفل يؤمن جانبه، لقد أعجبتها اللامبالاة التي كشفتها في حديثي، وليس في الوجود من يقبل ستر قصة كهذه إلا أن يكون مشرداً جائعاً مثلي ينظر إلى العالم كله دون اهتمام، وكان تفكيرها سليماً بلا أدنى شك.

آلمني أن السر الذي احترزت منه أصبح موضع رزقي وإهانة لكبريائي، وتذكرت في تلك اللحظة وداع أمي فعرفت أنني كنت قاسياً في حكمي عليها، لقد قبلت رجلاً يضمن لها المستقبل وها أنا ذاتي أبيع اسمي على الطريقة نفسها لأضمن

الرغيف الذي صرت أخشى من أن أفقده. إن ما خيل لي في البدء أنه سعادة عرفت فيه مأساة والدتي التي سميتها رقيقاً أبيض، فلا فرق في أن تكون رجلاً أو امرأة فهم قادرون على جعلك كالسلعة قابلاً للبيع والشراء في أسواق النخاسة، حتى بعد صدور القوانين التي حررت الأرقاء.

خطرت لي فكرة سخيفة تنتمي في سخفها إلى طبيعتي اللامبالية فأجبته: هل أغادر المنزل إذا وقعت لك التعهد أم أنني سأنام الليلة هنا.

قال: سأتركك في المنزل بمجرد أن توقع باسمك وستتم مراسيم الزفاف خلال أسبوع.

صافحني مهنئاً وغادر المنزل، فقمت من فوري وخلعت ثيابي وارتديت بيجامة فاخرة كانت معلقة على المشجب، ثم شعرت بخدر شديد في أطرافي، وبرغبة هائلة تدفعني إلى الاستلقاء على السجادة، حتى أنني لم أصل بعيداً بضع خطوات إلا وكنت مطروحاً فوقها وتملكني سبات عميق.

- ١٠ -

استيقظت صباحاً ولا يزال في رأسي دويٌّ شديد من أثر المخدر الذي سقاني إياه ليلة البارحة وحاولت أن أتذكر فصول الحكاية كلها ، فخطرت لي ثانية ليالي ألف ليلة وليلة، بعشائها الفاخر وأميراتها الساحرات ومن ثم بالمخدر الذي يدس في الشراب والطعام.

كان المنزل خاوياً وقد تمت اللعبة وانتهى الأمر وكنت أعلم سلفاً ما سيحدث في الغد، سيطلب مني أن أطلقها عاجلاً. ترى هل في قدرتي أن أفعل شيئاً إزاء هذه القضية التي استغفلت فيها بوضوح؟.

لقد قام الصيدلي بدوره وكان ماهراً، وساهمت ابنته بقسط وافر في إنجاح الخطة. جلست أقضم أظافر الحسرة، وأناقش نفسي وأهزأ من حسن تفكيري ، فقد تم خداعي بسهولة تامة، وكأني لم أدخل في حياتي تجربة قط. أدركت أن العمر مهما تقدم

بنا سنبقى أطفالاً تجاه الأحداث المقبلة.

علمت أن الصبية التي سأمنح طفلها اسمي ابنة أخت الصيدلي، وأن قريباً للعائلة كان قد أخطأ في ساعة طيش، فأسلمته قيادها، لكنه متزوج ويخشى من أن تطيح الفضيحة بسعادته الزوجية لأنها مبنية على ثروة زوجته ومركز والدها المرموق، ولم يكن إجهاض الحامل حلاً يرضيه لأن زوجته عاقر لم تنجب منه. فهو يرغب في أن يجد طفلاً يخلفه ويرث المال كله، فكان الاحتفاظ بالطفل وستر الفضيحة بزواج مزعوم أمام الناس الحل الوحيد، ويبدو أن كل الأطراف صارت على علم بالتفاصيل فيما عدا زوجته العليلة.

لم يكن يعنيني شيء من هذه الفضائح ولم أكن أهتم بأبطالها، فأنا قادر على أن أتكهن بألف فضيحة من هذا النوع محتملة الوقوع بين أبناء الأسر الأرستقراطية، فلا استسلام الفتاة لقريب متزوج أغوى عنفوانها واستثمر نضج أنوثتها هو الاستسلام الأول في التاريخ ، وليس نفسه الأخير أيضاً، فالتفاحة المحرمة التي أنزلت أبانا آدم من الجنة على ذمة الكثير من المفسرين، وقتلت هابيل بيد أخيه قابيل ستظل ذاتها وارمة النضج في صدور الصبايا تغري على القطاف.

كان تهمني فكرة استخدامي والد طفل لستُ أباه واستعمالي زوج عروس لم أقربها بتاتاً ، ولكنها ستخلف طفلاً. ولا أدري إذا كان المولود سينشأ في المستقبل نذلاً كالأول الذي سطا على أمه أو خسيساً كالثاني الذي باعه لقبه.

نظرت إلى نفسي في المرآة الفخمة وقلت بصوت مرتفع: مبروك .. مبروك يا منحوس سترزق طفلاً في الأشهر القليلة المقبلة. وابتسمت بمرارة.

تم الزفاف في أسبوع واحد، لكني لم أشاهد زوجتي مطلقاً، كانت تنام عند أهلها وكنت أنام في المنزل الواسع وحيداً، وكنا كلنا ننتظر المولود السعيد ليتم الطلاق في إثر ولادته.

تناسيت الحادث وأخذت أستعد لفحص الكفاءة الذي صار على الأبواب، وكانت

ظروفي مواتية فلم يحاول أحد الإساءة إلي من أقربائي الأعزاء، وليس ذلك لسمو أخلاقهم ، إنما كانت طلباتي تجاب سريعاً خشية من أن أنتقم فأطلب زوجتي إلى بيت الطاعة لتقيم معي.

نجحت في الامتحان، وأعلن اسمي بين الفائزين، لكنه لم يكن نجاحاً باهراً بل تم بمساعدة اللجنة الفاحصة المدققة، فحمدت لتلك اللجنة رحمتها ولهجت لأفرادها بطول العمر ليدرك النجاح منحوس آخر قد تنتجه الأيام بعدي.

أنجبت زوجتي بنتاً جميلة جداً على ذمة الذين رأوها، أما أنا شخصياً فلم أرها بتاتاً، وكان في استطاعتي أن أدَّعي وأنسب جمالها الباهر لي ولكني لم أفعل إلا عندما أحببت أن أغيظ الخال المحترم وشخصاً كان في زيارته، قدرت أنه الوالد فقلت: أمر طبيعي أن ترزق زوجتي بنتاً جميلة جداً، فهي جميلة وأنا بدوري جميل.

وضحكت بينما حدق الاثنان في وجهي غاضبين وفي صدر كل منهما رغبة ملحة لو يصل إلى عنقي فيعدمني الحياة.

لمح معلمي إلى فكرة الطلاق، فأجبته ببساطة: إنني لا أفكر في الطلاق الآن.

أحس بعد سماع عبارتي، أن تنفيذ الفكرة أسهل من الخلاص من ذيولها، فعمد إلى إرضائي بشتى الوسائل، وأفهمني بصريح العبارة أنه لا يفكر في الاستغناء عن جهودي بل سيدفع لي راتباً كبيراً إنما يجب أن أكون لبقاً فأقبل الطلاق حالاً.

كنت واثقاً من أن قدمه ستطيح بقفاي حالما يتم الطلاق، فأجبته ساخراً: إنني أفكر في دعوة زوجتي إلى بيت الطاعة لتقيم في منزلي.

جن جنونه وخرج لأول مرة عن طوره وشتمني وعاب عدم الوفاء في أخلاقي ونكران الجميل. ولكنها كانت فرصتي الوحيدة لأقبض منه مبلغاً يساعدني بعد طردي الذي لم أشك فيه لحظة واحدة.

قال لي: انظر .. إياك أن تستثمر كرمي وإلا أرسلتك إلى السجن، سأعطيك ألف ليرة مقابل الخلاص منك.

ابتسمت وأجبته ببرود: لا تنسى أنني لم أقبض منـك مهراً مقدمـاً ولـذا فـإنني أريد مؤخراً صداقاً كاملاً.. أقبل ألفي لـيرة مقـابل فـرغ الـزواج. وأعتقـد أنـك ستقبض ضعف هذا المبلغ من الزوج الجديد فأنت ماهر تتقن المساومة وتصريف الأمور.

أجابني بينما كان يعد الأوراق النقدية بيد مرتجفة: أنت محتال..إنني لم أدفـع مثل هذا المبلغ لفرغ دكاني التي تقع في أحسن جادة.

أجبته: لابأس. إذا كنت تستنكر المبلغ سأعيده إليك وسأحتفظ بزوجتي وابنتـي التي ليست مني، ثم إنني الرابح في كل ذلك لأن جادة زوجي أعرض من جادة دكانك.

قال بغضب: اخرس أنت وقح .. قليل الأدب.

صمت مرغماً حتى لا يخطئ في عد النقود فأخسر مائـة لـيرة أو أكثر. أخـذت المبلغ منه ووضعته في جيبي دون أن أعيد عده فقد خجلت ودفعت ثمن خجلـي مـائتي ليرة قلت له مازحاً: إنني أملك مهراً هذين الألفين فما رأيك أن تقبل بي عريساً لابنتكـم المصونة وسأدفع نقداً.

التفت غاضباً وقال بحدة: ما فشرت تشوف خنصرها.

أجبته سريعاً: سبق لي وشاهدت فخذيها بينما كانت تهبط مـن السـيارة وليـس ظفرها فقط وأصارحك الحقيقة إن لابنتك فخذين رائعين.

احتد وراح يكيل الشتائم دون حساب وقال: تحملتك طويلاً.. أنت حقـير .. لقـد حل موعد طردك فاخرج من صيدليتي، وإياك أن تخطئ وتريني وجهك القذر ثانية وإلا خنقتك بيدي. سأزوج ابنتي شاباً محترماً يليق بها لا إلى مشرد سافل مثلك.

كان يتحدث بصوت عال وكنت أكرر في وجهه: طظ.. طظ..طظ...

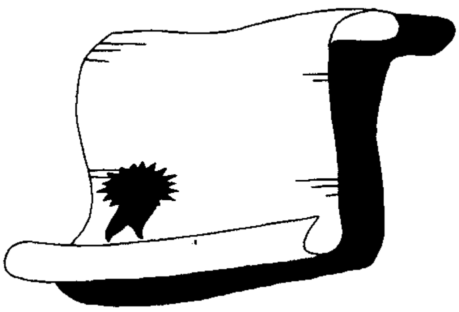
هجم عليَّ وهو يصيح: هذا جزاء التعامل مـع أولاد الأزقـة. إنـني أدفـع الثمـن غالياً لتعاملي مع غير أبناء الأسر الرفيعة.

خرجت من الصيدلية قبل أن يضربني فقد احتقن وجهه وفقـد صوابـه، وقـدرت أن الذي آلمه في الواقع، ليست إهاناتي المتكررة وإنما المبلغ الذي دفعه مقابل طلاق

ابنة أخته، وتساءلت هل كان يعتبر الذي غرر بها من أبناء الأسر الرفيعة أم من أولاد الأزقة؟. وكدت أعود لأستفسر منه، ولكني خفت على قلبه من مغبة السؤال.

سرت في الشارع دون وجهة معينة، فلا أخلص من التشرد حتى أعود إليه ثانية رغم أنني أملك ألفي ليرة إلا قليلاً وشهادة الكفاءة التي حصلت عليها.

ضحكت مسروراً من وجود مبلغ من المال في جيبي وهو مبلغ محترم، وتذكرت القصة دفعة واحدة، منذ قبضت أصابعي على بطاقة قدمتها لي يد مخملية ذات قفاز مخملي. أحسست برعشة في فؤادي وأنا أستعيد صورة ابنته وكان عشق خفي لذلك الوجه لا يزال في قلبي، أين تراها الآن إنني لم أشاهدها مرة ثانية بعد ذلك اليوم رغم كل الأحداث التي مرت وجعلتني زوجاً لابنة عمتها ثم أعادتني مشرداً إلى موطني في الطريق الذي صرت أحن إليه بعد كل فراق.



القسم الخامس

.. وكيف أحدثك عن الحب ؟.ما الحب؟..
أهو رفة هدب وفرار قلب؟.أم حكاية قلق وعذاب؟.

الحب دنيا الحياة..ولولا الحب لما أورق غصن ولما تأنق دوح ولا اخضلّت بالدموع ورود ولا انتشى جدول ولا صدحت بلابل بالأغاريد.

هذا هو الحب وأجمل ما في الحب عبرات المحبين.

- ١ -

وجدت عملاً متواضعاً كموظف بسيط في مجلة أسبوعية فقبلته، وكان الاتفاق أن يقتصر عملي في المجلة على تصليح بروفات المجلة واستلام البريد والإجابة عليه، ولكن اختصاصي شمل كل المجلة بعد حين بما فيه كتابة المقالات، وساعدتني خبرتي السابقة التي حصلتها خلال دوامي في المطابع مساعدة كبيرة.

وكيف لا أستلم المجلة من بابها إلى محرابها وليس فيها موظف واحد ذو شهادة أعلى رتبة من شهادة الكفاءة التي أحملها، فصاحب المجلة لا يملك غير شهادة أن لا إله إلا الله، وأما المحاسب وهو من أقربائه فكان يكتب النصف على طريقة

والدي في حسابات دكانه - رحمه الله - وكان الموزع بدوره لا يتقن القراءة فيتهجا الحروف ويعطي كل مشترك عدده ولكن واحداً من المشتركين لم يجد اسمه صحيحاً في مرة واحدة وإنما كان يجد اسم مشترك آخر على زنار المجلة.

ليس من الخطأ أن تكون المجلة على هذا الحال فهي مجبرة على أن تساير في مستواها العام بقية المجلات[1]، وإلا فإنها ستخسر و تباع ورقاً للصر لأن جمهور القراء المتوفر يهوى هذا الصنف الرديء.

جربت أن أضمن المجلة بعض المقالات (الملطوشة) من كتاب عالميين فكانت نتيجة ذلك كساد الأعداد لدى الباعة. وجربت أن أضمن المجلة عدداً من الصور العارية فكانت نتيجة ذلك زيادة نسخها، عرفت آنئذ أن الأعداد في كل المجلات ممتازة حين تعرض أجساماً نظيفة. وكلما كان العرض مغرياً ومثيراً كلما كان العدد ناجحاً وممتازاً وأحمد الله على عدم وجود أعداد رائعة وإلا كانت الصور(ناتوريل).

أيتها السيدات والأوانس أيها السادة..

أقول الحق .. الحق الحق.. ولاشيء غير الحق.. أقول الحق بلا مجاملة، لقد عثرت في الصحافة على مفاجآت غريبة تختلف كثيراً عن الألوان الجميلة والعناوين الضخمة والصور (المروتشة). شاهدت الراقصات فوق الصفحات وشاهدتهن وراء الكواليس.. إن أي رقاص للساعة يفوقهن مقدرة وفناً وخلقاً.

عشت مع المطربين والمطربات، فلم أجد بينهم من يحس معنى الفن على أنه أمل العالم الوحيد نحو الارتقاء، فكان فنهم في نظرهم مهنة .. إنه وسيلة ولذا استهلك التنافس في سبيل القبض أصواتهم أكثر مما استهلك الفن منها، ولو وفر واحدهم صوته لفنه دون استهلاكه في شتم الآخرين لكان نجاحه أعظم بكثير.

وأما الأدب فحدث ولا حرج.. الأدب شركة مساهمة مقتصرة على المساهمين وعلى الهيئة التأسيسية، فألقابه محصورة بهم وعلى الذين نالوا رضى النقيب. لقد

---

[1] - تناولت هذه الرواية وضع الصحافة القديمة التي كان معظم أصحابها دون شهادات.

اتصلت بنقابات الأدب وحضرت أعمالهم وتصدرت في صالوناتهم وكان الثمن أن أصفق وأطيب للأعضاء وأن أرشق التهم جزافاً في مجلتي لغير النقابيين[٢].

حضرات الأدباء يا أصحاب الملاحم الخالدة .. يا من أبدعتم الرومانسية .. وورثتم الكلاسيكية.. وخلفتم الواقعية..

لقد قرأت إنتاجكم الفخم وإنني أنحني بالنيابة عن تشيخوف وموباسان وغوركي وساروريان..أليس بينكم العمالقة الذين خلقوا أولئك الأقزام الذين عددت بعضهم؟؟ .. أو ليس هذا كافياً للتقاعد عن الإنتاج؟؟.. لقد قرأت تصريحات عريضة ذات عناوين ضخمة عن غوركي الذي قلد في روايته الأم أحد أعضاء النقابة[٣] وعن ساروريان الذي اقتبس أسلوبه عن فنان النقابة الأوحد[٤] الذي ولد متأخراً لكنه غدا متقدماً وكأن من جاء بعده أصبح قدامه ولا يستحق ساروريان أن يفك سيور حذائه[٥].

أيها السادة النقابيون .. أسألكم شيئاً من الرأفة بأعصاب الجمهور وقليلاً من التواضع .. وأعدكم أنكم ستصلون القمة دون درب[٦].

- ٢ -

فتحت الصحافة أمامي أبواباً لم أكن أعرفها، فطرقتها دون خوف حتى اشتهرت بسلاطة اللسان وكان هذا الوصف مقابل الصراحة التي أتحدث بها، فلم أحاول أن أتملق أنساناً لا يستحق المديح أو أن أتجنب عداوة شخص مرهوب الجانب.

---

[٢] – قصد المؤلف آنذاك رابطة الكتاب اليساريين الإشتراكيين التي روجت للأدب اليساري دون التقيد بشروط الأدب الجيد.

[٣] – تخص هذه العبارة قاصاً شيوعياً كتب قصصاً قصيرة قلد فيها غوركي وأطنب زملاؤه كثيراً في مدحه.

[٤] – تخص هذه العبارة كاتباً يسارياً على صلة جيدة باليساريين الفرنسيين، شغل منصب رئيس تحرير جريدة ذات يوم. وترجم قصص ساروريان وتبجح بأن الترجمة أروع من الأصل.وكان لصيقاً بالنقابة يستثمر أعضاءها لمدحه ويتنكر لهم في الملمات.

[٥] – اقتباس عن الوضع بين المسيح وابن خالته يوحنا المعمدان. والعبارة عن يوحنا للسخرية من اليساريين.

[٦] – إشارة إلى الكتاب الذي أصدره اليساريون " درب إلى القمة " في أواخر الخمسينات.

ربحت عداوة جديدة وربحت صداقـات أنـاس طيبين. وحضـرت حفـلات تـأبين كلهـا دجـل وريـاء[٧] وحفـلات انتخـاب ملكـات للجمــال كلهـا كـذب وخـداع[٨]. وشـهدت المصفقين في وجه الخطيب يرتدون عليه أنفسهم بالشتائم إثر انصرافه.

دخلت النوادي الليليـة فتعرفت علـى بـاريز منتصف الليل.. وكـانت كل هـذه الأمور تلقب جملة بأجواء المدينة الراقية وهذه هي نفسـها التـي تتصـدر فـي الصحـف والمجلات تحت اسم " سؤال وجواب مع المحترمين " وكلها دجل.

اعتدت على السهر وارتياد المحلات العامة وكانت الأجواء كالنار التي تجتـذب الفراش ليحرق جناحيه في أتونها. وكـانت شـهرتي قد ازدادت كصِحـافيٍّ نـاجح ونـاقد مرهف الحس ولكني وجدت نفسي مرغماً حتى أحتفظ بتلـك الأجـواء أن أسـاير البـاطل وأن أقبل اللف والـدوران ضمـن دوامـة التزييف، فتخـدر شـعوري قليـلاً وتخليـت عن بعض جرأتي واحتفظت بمثالية ضئيلة هي القدر الكافي لرفع الرأس قليـلاً إلـى الأعلـى وصيانة أفكاري من التناقض خلال التعامل مع الناس المتفاوتين علماً وثقافة.

❁❁❁

آلمني في بادئ الأمر جهلي لأصول الرقص الحديـث، فكنـت أجلـس فـي مكـان منعزل وأحملق بعينين نهمتين متابعاً تلوي الخصور النحيلة، وتثني القـدود السـمهرية وكانت كلها محتضنة بين أذرع الشباب اللاهث خلف العبث واللهو، المطمئن إلى إيـراد أبيه أو أمه أو تركة عمه.. شباب غض نهم يدور في حلبة الرقص فترتـاح الخدود إلـى الخدود وتتكئ النهود على الصدور، وتصدم الساق الطائشـة النزقـة فـي خطـأ مقصـود الساق الضائعة خلف النشوة والاسترخاء اللذيذ ثم يزيد في حمى الهرج ألحان مجنونـة وشهوات مكبوتة وهدوء ليل قارب فجره أن يبزغ.

ارتدت الملاهي لأتقن الرقص مـع المحترفـات فوجدتهـن أعجـز مـن أن يفقـن

---

[٧] – تتعلق هذه الفقرة بالتأبين الذي جرى في حماه لوالد عبد الحميد السراج، وفي دمشق لوالدة أحد المستوثرين من مال القمار.

[٨] – الحفلة التي جرت باسم مجلة الإسبوع العربي وبإدارة الصحافي غسان زكريا في مطعم الشرق.

عذارى البيوت ثم إن الثمن مرتفع وليس من تعويض إلا المتعة وكانت خير تعويض.

مارست حياة المجون في سكر معربد وسكر غير معربد، ومارست اللهو في في رقص مجنون ورقص ذي شجون، وكنت لا أترك فرصة دون أن أنتهزها في سبيل التعرف على أسرة من تلك الأسر الأرستقراطية. ولم يكن يغريني على إتيان ذلك الأمر طلب الشهرة أو حب المصاهرة من واحدة من تلك الأسر بل يدفعني إليه أنني استمرأت العناق خلف الأبواب بعد السهرة والناس نيام، ويجتذبني غزل العيون المنتشية بضغط الأنامل واحتكاك الركب.. ولماذا لا يكون الإحساس بمثل هذه الحركات لذيذاً ؟ أو ليست عملية اختلاس بوجود الأب والأم أو الأخ فهي إذن رائعة.

أتقنت الرقص كفالنتينو وأصبحت أمل الفتيات في كل احتفال لنيل جوائز، وللغرور ولفت الأنظار حيث أنني أتقنت تدويرهن كالبلبل والدوران فرصتهن الوحيدة لعرض الساقين البديعتين ولعرض ما تحت التنورة المصنوع من النايلون الرقيق الشفاف ويدل على ذوق عال وعلى أرومة أصيلة في الأرستقراطية. وكلما أوغل التأصيل في الأرستقراطية ازداد التساهل في كشف ما لا يستحسن ستره.

صادفت مطلقتي مراراً، وكنت كلما شاهدتها في ليلة أصابني الوجوم، وليس سبب وجومي في فقدها وإنما لأنها كانت تعيد إلى ذاكرتي صورة الوجه الباسم المشرق والعينين الضاحكتين واليد المخملية التي حملت ذكراها في قلبي دون ملل.

سألتني مطلقتي أن أرقِصَها مرة فخطر لي أن أرفض تشفياً من كبرها في الماضي ولكني عدلت عن الفكرة رغبة في معرفة أخبار قريبتها ابنة الصيدلي.

قالت خلال الرقص: لقد تريثت قبل أن تستجيب لطلبي .. لقد دعوتك إلى الرقص مراراً بعينيَّ، فلم تجب، أما زلت حاقداً عليَّ.

ظللت صامتاً بينما استرسلت هي في الحديث: أنت تعلم أنه ليس ذنبي ..ربما لو جلسنا معاً في الماضي قبل الطلاق، لما تم الطلاق بتاتاً.. إنني آسفة جداً لأنه لم يتح لي أن أعرفك على حقيقتك.

تغابيت عن المعنى الواضح الدي رمت إليه ولم أجب فقالت بصراحة: هل في الإمكان أن نتزوج من جديد، أنا أكفل لك قبول أسرتي، وإذا كنت تتضايق من الطفل وينغص عيشك فسأبعده عند أقربائي من أجل راحتك.

أجبت: لا يهمني الطفل ولا الماضي ولكني لا أريد أن أتزوج من فتاة قد ملت من انتظار الرجل الذي وعدها ولم تتوف زوجته حتى الآن.

أجابت: أنت مخطئ فقد توفيت زوجته منذ سنة وتقدم إلى خطبتي ولكني رفضته فقلبي لم يعد مولهاً به. أحسست أنه لم يكن إنساناً حين استغل مراهقتي. وليس من شيء يرغمني على الزواج به. فأنا مطلقتك أمام الناس وطفلي طفلك.

قلت محاولاً ألا أجرح إحساسها: أستغرب كيف تقبل امرأة مثلك الزواج من شاب لا تحبه.

أجابت: قرأت كتاباتك، وكانت تصلني أخبارك بعد انقطاع عملك في الصيدلية من صديقاتي ومعارفي، ويزداد إعجابي بك، لا تنس أنك زوجي في نظر الناس.

قلت باختصار: سابقاً.

قالت: لقد غدوت مشهوراً.

ثم أردفت: أرجوك أن تعيدني إلى الطاولة.. إنني..

جذبتها خارج الحلبة قبل أن تتم عبارتها، وأعدتها إلى مكانها في الحفلة، فضغطت على راحتي، ودعتني إلى الجلوس، فتمنعت متعللاً بموعد حان زمنه، وكنت أشعر في الحقيقة برغبة في استنشاق الهواء.

تكرر اللقاء بيننا ثم أصبحت تتصل بي هاتفياً ثم أخذت تأتي عندي إلى المجلة وطالما تناولنا الطعام سوية هناك وثرثرنا في مواضيع مختلفة.

علمت أن " هدى " وهو اسم ابنة الصيدلي تدرس الرسم في مصر وستعود في نهاية السنة فخفق قلبي خفقاًمجنوناً. وفكرت في أن أقطع كل صلة بمطلقتي ولكني تبينت تهوراً في ذلك ليس له ما يبرره فلم أجد في ذكرياتي ما يجعلني أعتقد أن هدى

تفكر فيَّ، بل هي ذاتها دفعتني بين أحضان قريبتها كحل لخلاصها.

عدت إلى غرفتي متأخراً تعباً، فوجدت المطلقة قد سبقتني إلى هناك ووقفت تنتظر أمام الباب. وكانت الغرفة عبارة عن صومعة في نهاية بناية فخمة، لم يعبها في جمالها إلا وجود تلك الغرفة الحقيرة التي كان مفروضاً أنها بنيت مخصصة لعملية التنظيف وتوضئة الغسيل، لكن حب الاستثمار جعلها منزلي المتواضع.

تطلعت إليها وقلت: هذه زيارة مفاجئة.

أجابت: سألتك مراراً أن تدعوني إلى منزلك فتجاهلت، ففاجأتك بحضوري.

فتحت الباب ودخلت وتركت الباب مفتوحاً دون أن أقول عبارة في التكريم فتبعتني وأغلقت الباب. قطعت السكون وكانت ما تزال واقفة وقد ظهر الوجل في وجهها فقالت: غرفتك عالية جداً ولكنها تطل على المدينة برمتها.

أجبتها: اخترت موقع غرفتي قريباً من السماء لعل الله يستجيب لأدعيتي.

تبسمت وتطلعت بطرف عينها بمكر وقالت: لن يستجيب لأدعيتك.. فهو يرى أفعالك. ثم غمزت بعينها معرضة بي.. فأجبت: لا أظنه غاضباً عليَّ ، لأنهن فاتنات.

هيأتُ القهوة، وجلست أرشف من فنجاني وأقرأ في العدد الأخير من المجلة بعض المقالات التي لم أقرأها قبل نشرها، وليست هذه عادتي وحدي وإنما كانت عادة عدد كبير من الصحافيين. وأزعجت برودتي الهائلة مطلقتي، ففكت اشارباً كانت تضعه حول عنقها، وقذفته في وجهي، فتلقفته ووضعته جانباً دون اهتمام به أو بها.

ضحكت بغباء وقالت: أعرف أنك تحب هدى فأنت تسألني عن أخبارها دون انقطاع ولكنك لن تنالها .. أنت مسكين .. أنت لا تدري ما هي طباع هدى ولا تعرف ما هي نفسيتها. أنت تعشق صورة من صنع خيالك، شتان بينها وبين قريبتي الفتاة المزيفة المغرورة، أنا أجمل من هدى وأشد إغواء، سأريك مكامن جمالي وفتنتي وسأرى مدى احتمال أعصابك.

أمسكت طرفي الثوب عند الصدر وجذبته بشدة حتى أفلتت العرى أزرارها وانخلع زر سقط عند قدميها. حدقت في وجهها وقوامها ونهديها المتجمعين كفرخي الطير خلف الغلالة الناعمة، وقد أمال كل نهد ذروة اشتهائه نحو أخيه يسأله ارتواء، وليس عند الآخر إلا ما كان عند الأول من الرغبة المختنقة خلف السوتيان الحريري، إلى البذل السخي في عراك ينشد اللذة حتى لو سبب ألماً غير متوقع.

لو كنت في حالة أخرى، لما انتظرت هذا المشهد بل اندفعت مذ خطت أول خطوة خلف الباب، ثم إنني كنت قد مزقتها إثر قذفها الاشارب في وجهي، فقد أمضني عطر بدنها المشبع به، لكني عدت إلى مطالعة المجلة بسكون، وفي الواقع كنت أتابع الأحرف دون فهم، لأن المعنى الذي رمت إليه قد أحدث في فكري مماحكة الأضداد، أنت تعشق صورة شتان بينها وبين قريبتي الفتاة المزيفة المغرورة.

واصلت مطلقتي الهجوم بسلاح أنوثتها فلم أشعر إلا والسوتيان قد أصبح في حضني، فحط نظري عليه وكان لا يزال مكور الحدقتين وكأنه ما انفك يحيط ثورة النهدين حتى أن في منتصفه وهم حلمة الثدي، وضعت السوتيان جانباً فانتابتني رعشة من ملمس الدفء الذي بقي في نسيجه، وتنسمت عطر بدنها بوضوح أشد.

افتر ثغرها عن بسمة إغراء ودعوة، وهي تواصل نضو الشلحة عن بدنها، فأفلت فمي آهة مكبوتة، بينما صار القماش الحريري يرتفع رويداً رويداً ليكشف عن شلالات فتنة وإغواء تضيع فيها فتنة عرائش الياسمين وحقول الزنبق، وانتشر شذا عطرها في جو الغرفة ورمت بالشلحة إلى الأرض.

خلعت حذاءها كيف ما اتفق ثم جلست على طرف السرير ورفعت الساق اليمنى فوق اليسرى وأنزلت الجراب وعادت فلفت ساقها اليسرى فوق اليمنى وأنزلت الجراب. وكانت في كل مرة تسترق النظر إلي وتضحك ضحكات منغمة عالية وهي ترى ازدياد ارتعاشي واضطراب بشرتي، ثم فكت شعرها من رباطه وتركته يتهاوى فوق أكتافها الفضية.

أشعلت سيجارة وتمددت فوق السرير وكانت تنفث الدخان من بين شفتيها كما تزق حمامة القبل لإلفها.

وقع بصري على السوتيان المكوم قربي ثم دار فعثر بالثوب، وكان ما يزال مفتوحاً يحدث عن الحورية التي أفلتته، وصار منظره فارغاً بائساً شقياً. ثم رأيت الحذاء المهمل والشلحة المنسابة بارتياح وفي ارتياحها حديث عن البشرة الناعمة التي كانت تلامسها فهي مثلها في الرقة والنعومة. وبلغت عيناي طرف السرير وكان الجوربان عليه فقدرت أن أي نظرة ألقيها على الفراش ستشدني إليه، وعرفت أي لهفة سيوقدها مشهد الساقين المرفوعتين فوق بعضهما، ومنظر القدم الرقيقة التي طليت بالأحمر ففتحت براعم الورد في نهايات أصابعها، ثم ما تبقى من القماش على بدنها بلون وردي زاه وتطريز بديع كتطريز أوراق التفاح التي أغرت آدم فأنزلته من صاعد.

لملمتُ أشياءها الجميلة ووضعتها على مقعد في الغرفة، ثم أشعلت سيجارة واتجهت نحو النافذة ورحت أتابع أسطح منازل المدينة وما كان عليها من غسيل منشور. لم أكن أعلم أي كبرياء مجنون صدني عن مضاجعتها ..إنه نوع من الإحساس العنيد الذي نندم على مطاوعته لأنها ذات الفتاة التي اشتهيتها ليلة أن أصبحت زوجاً لها وحرمت من معاشرتها.

هي الآن أمامي معروضة بحطامها واستسلامها كاملاً، وأنا أظل إزاء النافذة ساكناً غير آبه بها، لقد كدت أجبن لولا سماعي أزيز السرير منصرفة عنه. فبقيت أتطلع عبر الزجاج ولم ألتفت حتى سمعت صفق الباب الخارجي.

غادرت مطلقتي مسكني فلم أطق صبراً على البقاء وحيداً في الغرفة، فخرجت بدوري مبتعداً عن جو الغرفة المحموم، وعن ذكرى وجودها التي أبقتني مشرداً في الشوارع والحانات بقية نهاري وسواد ليلي والتي قادت خطاي في نهاية المطاف إلى بائعة هوى رخيصة، وما أكثرهن في المدينة.

مضت أيام كئيبة بعد تلك الحادثة فحاولت أن أبتعد عن الناس جهد طاقتي وأملأ فراغ الوقت بالمطالعة من جديد وكان لدي عدد كبير من الكتب التي صدرت حديثاً لم أفتح أوراقها فعدت إلى العزلة والمطالعة.

قرأت خبراً في صحيفة مصرية عن نجاح هدى في السنة الأخيرة وحصولها على شهادة عالية في الرسم والتصوير، فقدرت من نشر الخبر ولا سيما أنني صحافي وجود معجبين بها، فألقيت بالصحيفة وعدت إلى القراءة ولكني لم أستطع أن أتم فصلاً واحداً بل كانت ذكراها تلح على دماغي وكانت فكرة رجوعها تعبث بقلبي.

فكرت طويلاً فلم أصل إلى قرار يريح تواثب الخواطر وولادة الظنون إلا أن أعود إلى دمشق وأرى أمي. ولقد اشتد الحنين في قلبي بعدما خطر لي هذا الخاطر حتى أنني لم أستطع أن أهمل تنفيذه، وكانت أخبارها مقطوعة عني طيلة سنوات.

حملتني السيارة مسرعة إلى الوجه الحبيب .. ولكني شعرت برهبة اللقاء حالما وصلت دمشق وازدادت الرهبة عند بلوغي باب المنزل وعجزت عن تصور لحظة الرؤيا.

كان باب البيت مفتوحاً وأفهمني منظره المغاير أن والدتي قد تزوجت فطرقت باب الجار آملاً في أن أجدها عنده، فقابلني الجار مرتبكاً وظهر هلع شديد في وجهه وجافاني بعبارات مبهمة.

بحثت عن منزل جدتي لأسألها، فلم ألق وجهاً واحداً أعرفه هناك من قبل. أخذت ألوم نفسي على تقصيرها في حق أمي المسكينة ورحت أجوب بعض الحارات بحثاً عن خالاتي أو أقرباء آخرين ولكني كنت أفاجأ غالباً بعمارات جديدة تصعد في السماء وقد ذهب ما كان من منازل عتيقة.

عرفت مصير أمي من قريب لنا، وكان أقسى ما تقدر النفس أن تحتمله فانهارت أعصابي وهو يقص عليَّ مأساة والدتي. لقد ماطلها الجار العزيز صديق

والدي في تنفيذ وعده بالزواج منها ثم تخلى عنها ومن ثم وقعت بيد صديق آخر كان يحب والدي كثيراً، فأحب التخفيف عن زوجته، ثم أحرقت نفسها.

لا ريب أنها شعرت بالنار أخف وطأة من سعير العذاب، وإلا ما أقدمت على الخلاص بلهيبها. من هم شركاء الجريمة؟. تأكدت أنني أحمل قسطا من الوزر، لأنني لم أجهد حتى أقنعها، ويحمل الوزر أصدقاء والدي الذين تحسروا على فقدها وقرؤوا الفاتحة على روحها، ولكن حامل الوزر الأكبر نظام المجتمع.. هذا المجتمع الظالم بعاداته السيئة وبتقاليده البالية، فكانت والدتي واحدة من ضحاياه، مثلها مثل كل أرملة يرحل زوجها عنها وليس بين يديها سلاح تجابه به الوجود، وتصون به تحررها والأولاد الصغار الذين خلفهم الراحل.. إذا كنت غنياً فتزوج وانجب، أما إذا كنت فقيراً فإياك أن تموت عن أرملة في الشرق وعندك أصدقاء، وإلا خففوا كلهم عن أرملتك.

كانت والدتي واحدة من النساء اللواتي عثرت خلال تشردي على حطامهن.. لكنها كانت أسلم تفكيراً وأفضل خلقاً، فلم تذهب في حياة التشرد غير خطوات وأسلمت الروح خالقها. لو تعلمت والدتي[9] .. لو أنها أتقنت حرفة[10].. لو بقيت إلى جانبها.. لو آمنت والدتي وأنا ابن الخامسة عشر عاماً أني قادر على حمايتها .. لو أنني لم أبتعد.

بقيت تائهاً مريضاً ولم أستطع أن أصدق الحادثة، ولم تفد عودتي إلى حلب في التخفيف من أثر المصاب على نفسي، فكانت عبراتي تنهمر خلال العمل وفي الطريق وأينما كان، ولم أكن أجرأ على تذكر طرف من القصة حتى ألازم صديقاً أبثه نجوى عذابي الشديد.

صرت أبحث عن كل امرأة متسكعة لأعطيها ما في جيوبي، وصرت أتجول طوال الليل مخبول الفكر، ألثم جدران الجوامع والكنائس، وأينما كنت أصادف ظلاً لله في الأرض كنت أدعو ألا تعاد المأساة ثانية مع أرملة أخرى. وكان يزيد في حسرتي

---

٩ – لم يكن تعليم الفتاة قد اتسع عند نشر الطبعة الأولى عام ١٩٦٠.

١٠ – كان عمل المرأة مقصوراً على حاملات الشهادات المهنية وعلى نطاق ضيق حتى ١٩٦٠.

ثقتي بعبث ما أقوم به من أعمال، لا تمت إلى صواب التفكير والعقل في شيء مطلقاً، لكن الإحساس الدفين هو الذي صور الله قادراً على أن يحيل دموع المشردين إلى ابتسامات عذبة.

- ٥ -

رجعت هدى من مصر ووصلت حلب واستقبلها أصدقاء الماضي والأهل والأقرباء، ولم تمض فترة على إقامتها حتى أعلنت عن إقامة معرض للرسم لعرض منجزاتها خلال سنوات دراستها. شغل المعرض عدداً كبيراً من الأسر الأرستقراطية، لما كان فيه من جرأة في رسم المواضيع الجنسية وتناولت صحف المعرض بالتقريظ.

لم أرتد المعرض ولم أحاول أن أتصل بها، وليس سبب ذلك نسيان قلبي حبه، ولكن المصيبة الأخيرة ما تزال مسيطرة على تفكيري تملي عليَّ تصرفاتي، حتى أن الأعداد الأخيرة من المجلة ظهرت كأنها بلاغات نعي ومقولات رثاء.

جرب صاحب المجلة أن يعلم مني سبب النحيب في كل كلمة يفلتها قلمي فلم أكاشفه بالسر، فبادر يلومني على مرتجعات المجلة في الأسابيع المنصرمة، فشكرته على لطفه وأفهمته أنها لم تصل بعد إلى الأرقام التي كانت المرتجعات تبلغها قبل قدومي، فما يزال طرف من فضل تدين المجلة لي به.

تبسم في وجهي وعاد إلى إطراء موهبتي وسألني أن أرافقه فسيطلعني على أجواء لا تخطر لبالي وألح كثيراً فلم أجد بداً من الموافقة. خرجنا سوية في زيارات قصيرة لبعض أصحابه، وكانوا أناساً صريحين، فوجدت بعض الراحة في عشرتهم، لكني فوجئت برغبتهم في زيارة معرض الرسم فرفضت المشاركة ثم أفلت زمام الموقف من يدي ولم أجد بديلاً عن الرضوخ لقرارهم.

دخلنا المعرض ومكانه في نادي حلب المشهور، ووقفت أتابع لوحة كانت لامرأة في العقد الرابع تتأمل شاباً في العشرين، وقد ظهرت الرغبة والحسرة وبان الاشتهاء في حدقتي المرأة. وكان عنوان اللوحة " ليت " ولعلي وقفت إزاء اللوحة أكثر

مما تستحق وكنت في الواقع أتابع براعة الريشة التي استطاعت أن تظهر جموح الإحساس بدقة بضربات خفيفة في عمق الحدقة.

جذبني صاحب المجلة قائلاً: كان عليك أن تجلب سريرك معك، فما تزال في المعرض لوحات كثيرة وما زلت في البداية.

ثم استرسل: في الواقع إن جلب السرير أحسن فكرة خطرت لبالي.

ولكزني في خاصرتي وتابع تعليقه: سأعرفك على الفنانة القديرة.

سرنا خطوة واحدة حين قال: الآنسة هدى لا تحتاج إلى تعريف، فهي معروفة دائماً من أناقتها، الأستاذ عبير أفشل محرري المجلة.

وجدت نفسي أمام الفنانة وجهاً لوجه، فارتبكت أول الأمر ثم حدقت في وجهها، وكان الوجه الذي انتظرت رؤيته طويلاً. وتأملت البسمة الحلوة المنورة على الثغر وعادت ذكرى بسمتها وهي تمد يدها بالبطاقة إلى ذهني.

مدت هدى يدها مصافحة فتمهلت قبل أن أتلقف راحتها في كفي ولم يكن القفاز المخملي يغطي كفها لكن البشرة المخملية ذاتها. فقلت وأنا أصافحها: لقد عرفت من ملامسة أناملك معنى الطراوة في دبيب الريشة فوق اللوحات.. إن يداً غير مخملية لا تقدر أن تصور خفة الظل ورعشات النفس الإنسانية في العيون.

قال صاحب المجلة: ألم أقل لك أنه أفشل محرر في المجلة بعدي.

ضحكنا جميعاً وردت هدى: كنت أنتظر بلهفة زيارة أفشل المحررين لأن إيماني بهم أشد دائماً.

وانضم إلى الحلقة أصحاب الأستاذ صاحب المجلة وكانوا من أصدقائها في الوقت ذاته فعلق أحدهم بقوله: عندما عرضنا فكرة زيارة معرضك تمنع عبير كثيراً.

لفتت نحوي عينين مستفهمتين فأجبتُ: لأنني نفسي معرض متنقل.

ابتسمت هدى بينما قال الأستاذ : ما رأيكم في الذهاب بدعوة مني إلى العشاء الليلة، عندي مشكلة تتعلق بتبديل سحنة عبير، فهو كئيب منذ عاد من دمشق.

حصلت الموافقة على أن يلتقوا في النادي لأنهم يريدون الانصراف الآن، ولم يبق غيري في المعرض إلى جانب الآنسة هدى لأني كنت مجبراً، وما أحلى أن يكون الإنسان مجبراً على البقاء لأخذ ملاحظات الفنانة ودراسة اللوحات.

طفت في المعرض مراراً ودونت ما أحتاج إليه، وكنت أرقبها من طرف خفي فعرفت بملاحقة عينيها لشخصي أينما اتجهت. اقتربت من موقفي وقالت: لقد جعلتني أغار من لوحاتي .. ألم تنته .. إنني سأحقد عليها لأنها تسترعي الانتباه أكثر مني.

التفت ونظرت في عينيها وأجبت بتؤدة: لقد بقيت لي لوحة واحدة لم أدرسها وأظنها ألغز اللوحات تشكيلاً.

استندت إلى الحائط وظلت ساكنة وكأنها تمكنني من دراسة اللوحة الأخيرة، فقلت: لو لم أكن أعرفك لانتظرت أن أرى فنانة قد نسيت الريشة في رأسها. ولما كنت أعرفك من قبل قدرت أنني سأرى فناً مزدوجاً.

أجابت: أشكرك على هذا الإطراء ولكني لا أتذكرك أبداً هل زرت مصر خلال وجودي فيها.

أجبت: كلا، إنما توقعت أن تكون قريبتك قد حدثتك عن الزوج المستعار الذي وجد وظيفة زوج بفضلك.

قرأت في عينيها عدم الفهم فاسترسلت: أخمن أنك لن تذكري المشرد الذي أعطيته بطاقة ليعمل عند والدك، لقد أنقذتني من الموت جوعاً ولكنها الإهانة التي تعذبني حتى اليوم.

أفلت فمها ضحكة مرحة، احترت في فهم معناها، وكنت أنتظر جواباً حين قبضت على ذراعي وقالت: هيا بنا لقد مللت من الناس واللوحات، أنا لا أستطيع البقاء في مكان واحد حتى لتقبل التهاني. ألست سخيفة جداً ولكني لا أطيق رؤية الجدار نفسه وقتاً طويلاً.

أجبتها: لم يحن وقت الذهاب إلى النادي.

قالت: لا يهم ..سنجد مكاناً، نستطيع أن نضيع الوقت فيه، هيا إلى المجلة.

❁❁❁

واجهتني هدى في جلستها، ولفت ساقاً على ساق، وكانت ترتدي ثوباً ضيقاً وكنت خلف مكتبي، وصرت أدون عن المعرض وأسمعها ما دونته من عبارات بين الحين والحين، وعندما لا أجد ما أكتبه أتأمل أنوثتها الطاغية، إنها ابنة الصيدلي التي بقيت في ذاكرتي وعشقتها ولكنها أقل براءة وأكثر إغواء.

تذكرت عبارة قريبتها عندما كانت في غرفتي، إنك تعشق صورة من صنع خيالك شتان بينها وبين قريبتي الفتاة المزيفة المغرورة.

ظلت هدى ساكنة في مقعدها كطفلة تلقت حزم أمها، فلم ألمح غروراً في نفسيتها، ثم ضحكت وتكلمت دون توقف من أجل البحث عن الأفكار، فانطلقت بصدق وصراحة فلم أعثر على تزييف في شخصيتها، لقد شعرت أنني ازددت حباً وأن قلبي لن يجد سبيل خلاصه من حبها بعد هذه الجلسة الهادئة.

قالت: حدثني كيف تم زواجك من قريبتي؟.

قلت: أرجوك ..أفضل أن أنسى الموضوع.

قالت: إنني لا أذكر سوى صوتك الذي حدثني. كان ساخراً.. ولم أدر آنئذ هل كنت تسخر مني أم كنت تسخر من حياتك نفسها.

أجبتها: كنت أسخر من الوجود كله، إنني لم أعتقد حتى الآن بوجود أمر واحد يدعونا إلى البقاء إلا القلب.. فالقلب يبقى طاهراً مهما علق الفجور بالنفس. ولابد للإنسان من عودة إلى قلبه يستلهم منه العاطفة الصادقة.

بقيت واجمة دون أن تنبس ثم لم تلبث أن قطعت السكون قائلة: حدثني عن الحب؟.

أجبتها وكيف أحدثك عن الحب؟. ما الحب؟. أهو رفة هدب وفرار قلب؟. أم حكاية قلق وعذاب؟. الحب دنيا الحياة، ولولا الحب لما أورق غصن ولما تأنق دوح ولا اخضلت بالدموع ورود ولا انتشى جدول ولا صدحت بالأغاريد بلابل. هذا هو

الحب وأجمل ما في الحب عبرات المحبين، إنها كأمطار السماء رمز خصب وعطاء، وينبوع كل ينبوع في الحياة..إن القلب الذي لا يعرف الحب لا يعرف لذة العطاء والخصب ولا لذة الحياة.

قالت في جفاء: أنت طفل عاطفي .. هل هذه افتتاحية المجلة بقلم الصحافي البارع عبير.. أنظر ..لقد ناقشت بفكري الحب ووصلت إلى نتيجة واحدة .. إن الحب وهم الضعفاء وعزاء المحرومين من الجنس، أتريد قولاً أجرأ من هذا إنني مستعدة.

أشرت إليها أن تصمت فقد استطعت أن أخمن الفكرة التي كادت أن تنطقها شفتاها وقلت بغضب وحدة ظاهرين: اسمعي يا هدى.. ليس الحب طفولة وليس الاحتراق بلهيب الحب غباء، وليس عشق النفس بطولة. وصلتِ إلى معرفة الحب عن طريق العقل فعرفْته بأنه وهم الضعفاء وعزاء المحرومين من الجنس، ولكن الحب أبعد من أن يدرك بالعقل، وإنما القلب يشهد له. فالحب كالله يوصلنا إليه الحدس في لحظة تواجد روحية. ومهما بلغ الإلحاد في عقل مجدف فإنه لا يمتنع عن ذكر اسم الرب في ساعات نشوته أو عذابه. إن الذين يهملون القلوب يعيشون في جحيم الفراغ وجحيم القلق من المصير المجهول، أما الذين يؤمنون بأن القلب أوعى من العقل في إدراك الحقيقة فإنهم لا يحسون بالفراغ مطلقاً، اذكري أن الطفل يولد بقلب كامل ثم يكتسب عقله.

دنتْ نحوي بعينين مسبلة أهدابهما وكأنها كانت تفكر ملياً في دفاعي عن الحب ثم لم تجب، بل نهضتْ واقفة وقالت: سأنصرف الآن.

قلت: لاشك أنكِ مللتِ مني، فقد مضى على وجودنا سوية أكثر من ساعتين.

قالت: كلا ، لقد أعجبتني يا عبير. وتستطيع أن تفخر بذلك لأن إعجابي غير مبتذل إنه مقصور على بضعة أشخاص.

أجبتُ بتؤدة: أعتقد أن إعجابك مقصور على نفسك يا سيدتي.

رفعَتْ الحاجبين المقوسين كوسم عنق الحجل وتطلعَتْ بطرف عينهاوابتسمَتْ

قائلة: إلى اللقاء في النادي.

بقي المقعد الذي كانت جالسة عليه دافئاً وظل ثقل ردفيها مطبوعاً عليه، فشعرت حين جلست عليه بخجل من نفسي، فنهضت واتجهت نحو النافذة. وألصقت جبيني بزجاجها البارد وتساءلت: هل الحب عزاء المحرومين من الجنس؟.

تولعت بحبها وهي بعيدة، وصبرت على غيابها، فهل أصبر على فراقها بعدما أصبحت في المدينة ذاتها. لقد شعرت أنها من نوع خطر يهوى أن يسود دائماً وهذا يتنافى مع الحب.. إن طريقي إلى قلبها شاق وعسير.

- ٦ -

أنهيت كتابة المقال حول معرض الرسم، وقد بينت فيه أن الفنانة تملك قدرة عجيبة على تحريك أصابعها بالريشة، فتبتكر من ضغطٍ ورعشاتٍ، أحاسيس إنسانية رائعة، وإن كانت نفسها تجهل قيمة ارتعاش أناملها خلال رسم اللوحة. ثم تحدثت عن أسلوبها في مزج الألوان مزجاً متناسقاً يولد ألواناً جديدة، فالأحمر قوي في لوحاتها والأخضر بسيط في انسيابه والأصفر مبتكر محبب. ثم قلت: إذا شاهدت في الطريق فتاة غضة الصبا براقة المظهر قد انسجم أحمر شفاهها مع اخضرار ثوبها مع تثني قوامها فاعلم أنها الفنانة التي حدثتك عن لوحاتها.

اتصلت بي هدى بعد صدور المجلة وقالت: سمعت عن احتواء مقالك أشياء حلوة لم تقرأها عليَّ فهل تجلب عدداً وتأتي لزيارتي؟.

أجبتها: أنت تعلمين مقدار حقد والدك عليَّ، فلا ترغميني على القيام بما لا تستسيغه نفسي، فقد يقع أمر بسيط يزعجني مهما كان تافهاً.

قالت: إنني لا أدعوك إلى المنزل.. إنني الآن في المرسم، ألم تعلم أنني استأجرت مرسماً خاصاً بي؟.

استعرضت صفاً من الأبنية، ورحت أتطلع مخمناً الطابق الذي يمكن أن يعجب هدى فشاهدتها في النافذة تشير إليَّ. دخلت المنزل ففاجأني منظر المرسم كثيراً، فقد

احتوى من الغرف أكثر مما يلزم فناناً محترفاً لديه عائلة كبيرة.

قالت: أرجو ألا تكون وجدت صعوبة في العثور على الشقة.

قلت: سرت على نور هداك، ولكني أستغرب مرسماً فيه هذا العدد من الغرف.

قالت: لا تستغرب ألم تدر طيشي بعد .. يصعب عليَّ أن أبقى في غرفة واحدة مدة طويلة ولذا فإنني أبدأ اللوحة في المرسم ثم أنهيها على الشرفة.

أجبت: لن أستغرب إذا طال الوقت بك قبل إنهاء لوحة أن أشاهدك فوق أقرب عمود من أعمدة الطريق.

ضحكت هدى ثم قدمت إليَّ علبة السجائر وحاولت أن أشعل سيجارتي فأبت عليَّ ذلك وأصرت أن تشعلها لي وتقدمت بإغراء وكان جسدها يتلوى خلال تقدمها ثم إن عينيها تكادان تذوبان رقة وحناناً. أمسكت كفها خلال ذلك وأبقيته بين كفيَّ فتركتني أستمد النشوة من دفئه والعاطفة من لينه. ثم أفلتت يدها واتجهت بعيداً عني ووقفت متطاولة بقوامها من مكانها البعيد وبلهجة رقيقة خاطبتني: عبير ..لم نلتق كثيراً.. فهل أحببتني؟.

قفزت قريباً منها وقلبي يكاد يثب بين ضلوعي وتلعثم لساني ونطقت بوجل: أحبك فوق ما تتصورين.. أحبك فوق ما يحب إنسان خطيئته.

التفتت إليَّ وقالت: كنت أخشى ذلك لأنني أرغب في أن نظل أصدقاء.

تدفق الدم إلى وجهي وفشلت محاولاتي كلها في تهدئة أعصابي الثائرة، وفهمت آنئذ قول مطلقتي " هدى فتاة مغرورة ومزيفة " فقلت محتداً: لقد أفسدك الدلال كثيراً يا هدى.. تحسبين أنك وصلت إلى هذه الحال بقوة شخصيتك وعظمة نفسك، أنت مغرورة يا هدى لقد نلت ما تصبين إليه لأنك وحيدة والديك وبفضل عائلتك والثروة التي تملكها. أنت كأبيك في الأرستقراطية المزيفة. إن الإنسان الأرستقراطي في نظري هو الذي يقدم احترامه لأكبر عدد من الناس لا الذي يتقبل احترام عدد كبير من الناس، إن الإنسان الأرستقراطي هو الذي تنبع المحبة من صميمه لا الذي يستثمر

محبة الآخرين. لقد كان على الشخص الذي تحبينه أن يستجيب لك وإلا فهو متوحش وأما الذي يحبك فهو طفل.. أجل انعتيني بالطفل ولا يهمني أن أكون طفلاً، طالما أن طفولتي ستتيح لي أن أحتفظ ببراءة الطفولة ومحبة الأطفال الصادقة للناس، ولن أعرف الحقد أو الضغينة أو الاستثمار.

أنهيت حديثي واتجهت خارج المنزل وبقيت هدى ساكنة دون أن تنطق بحرف أو أن تتحرك قيد أنملة.

سرت في الطريق غاضباً ولم أكن أدري حقيقة عواطفي تجاهها في تلك اللحظة، فقد تتابعت الحوادث سريعة حتى أنني لم أقدر أن أوجه خطاي في حبي الذي طالما انتظرت من أجله لأضمن النجاح لمصيره.

إن أغبى الناس العاشق، لأنه يداري هواه عن كل العيون ولكنه يفقد كل شيء في لحظة نزق طائش، ولعل سبب النزق كامن في كبريائه أمام حبيبه، فيبقى مستعداً ليتخلى عن ماله بل عن وجوده ولكنه يأبى أن يُمَسَّ كبرياؤه فهو آخر ما يشعره بوجوده حياً.

صادفت هدى بعد ذلك مراراً في النادي وكان اللقاء يقتصر بيننا على التحية العابرة، وإذا ما أرغمتنا الظروف والأصدقاء، جلسنا حول طاولة واحدة، وكانت الظروف أملنا كي نعيش ساعات معاً.

كان بيننا نوع من الخيوط الخفية تشد أنظارنا إلى جهة واحدة أو تثير اهتمامنا بأمر واحد، أو تحرر البسمة على ثغرينا، لكن ذلك لم يجد في قيام اعتذار ينسينا الحادثة. تساءلت إثر كل لقاء عن حقيقة عاطفتها وعن السر الكامن في تتبع أخباري وعن الجفاء الذي ألقاه منها أحياناً. هل بلغ لديها تسلط العقل ذروة يجعلها تعيش جو الحب دون أن تكتوي بحرارة عاطفته أو أن تذوب في هنيهات لقائه؟.

أرسلت إليَّ إحدى لوحاتها هدية في مطلع العام وكانت اللوحة عبارة عن خطوط حمر جائرة تمثل دفقاً من العواطف، لوحة رمزية كتبت فوقها بخط أناملها

الناعمة (ذكرى مناقشة قديمة أوحت بهذه اللوحة، مع تحيتي) ويلي التوقيع.

زادت اللوحة في بلبلة خواطري واحترت فيما إذا كانت دعوة جديدة للاتصال بها أو أنها إثارة جديدة. وقررت أن أستشير فتى مراهقاً حول الموضوع فقد يكون نفسه أصدق إحساساً فيلهمني طرقاً أكشف بها واقع الحال.

وقفت قرب منزلها وأدرت أرقام الهاتف حسب إرشادات الفتى المراهق وطلبتها فأجابت بعد قليل: آلو ..مين..؟

أمسك الفتى المراهق الهاتف من يدي وقال لها: أنا لا أعرفك ولكنْ.. قد سبق أن حدثني صديقي عبير عنك. وعزمت أن أخبرك عنه، بأن سيارة مسرعة صدمته وهو الآن في المستشفى القريب من شقتك.. هذا كل ما في الأمر.

قطع الاتصال وقال لي: إذا نزلت حالاً فإنها تحبك حباً جماً، أما إذا تأخرت قليلاً فهي تحبك بين بين.. أما إذا..فإنها لا تحبك أبداً .. ستعرف النتيجة خلال ساعتين، أتمنى لك التوفيق والنجاح في حبك.

غادرني ملوحاً بيده، فشعرت بسخافة سلوكي إثر انصرافه، ولكني لم ألبث إلا قليلاً أتجول عبر الرصيف حتى حمدت لشباب جيمس دين[11] إدراكهم الصادق في كشف عواطف الفتيات. فقد ظهرت هدى خارجة من المنزل وبدا شحوب شديد في وجهها وارتباك في مشيها.

أمسكت يدها عندما مرت قريباً من موقفي وجذبتها بسرعة ودخلت معها دهليز عمارة، ووقفت أحدق في عينيها، لقد كانت مفاجأة غير متوقعة بالنسبة لها فظهرت عبرات في عينيها وقالت: هل أنت سالم؟.

ولم تكن قد أدركت الأمر بعد، ثم انتبهت إلى جلية الموضوع، فقطبت حاجبيها وزوت شفتيها فأدركت أن ثورة جامحة على وشك أن تندلع.. قلت: لقد تحملنا كثيراً..

---

[11] – ظهر جيمس دين في لون جديد من الأفلام العاطفية التي تجعل المرأة تبحث عن السلوك الذي يرضي الرجل.

لماذا ندع الكبرياء وحدها تعذب قلبينا؟.. أو ليست مناسبة لبقة وتجديد اعتراف، أنني أحبك يا هدى.. وأنت تحبينني، لقد أتيت مسرعة.

أجابت بهدوء: إنني لا أستغرب أن تتبع أسلوب المراهقين إنك أضعف مما قدرت في نفسي بكثير.. لست رجلاً بتاتاً يا عبير.

قلت – إنك مخطئة يا هدى.. أنا رجل مكتمل الرجولة إزاء كل القضايا عدا الحب فإنني طفل أمامه، لأنني لا أعرف كيف أكذب بالعواطف، كانت ضربات السنغال في أيام النضال والثورة أسهل على نفسي من لمسات أنامل امرأة أحبها..

قاطعتني قائلة: أ تحبها أم تشتهيها؟.

قلت بصخب: أحبها أو لا تدركين؟.. إذن سأحدثك بصراحة ..إن جسم قريبتك أجمل من جسمك وأبدع تكويناً وهي أشهى من كل ما تملكينه أيتها الفنانة المغرورة، سليها تحدثك عن غرفتي وسريري وتمنعي وكبريائي. سليها إذا شئت وسلي عن كل راقصة تنتظر خبراً يخطه قلمي.

قالت: كل هذه المبررات لن تغطي كذبك.

أجبتها: وماذا تهمني المبررات؟. لقد عرفت أنك تحبينني مثلما أحبك وقد يكون حبك أعمق مما أكنه لك.

أجابت بكبرياء: ما أسخف ما وصلت إليه ألم تدرك أيها السيد الأرستقراطي أن قدومي حدث تحت دوافع إنسانية لا علاقة لها بالحب ألم تعرف أن الإنسان أرستقراطي بمقدار ما يقدم من احترام لأحاسيس الناس.

قالت ذلك وكانت ترتعش وتجهش وتكاد تبكي ثم أسرعت مهرولة. حاولت أن أمسك يدها فجذبتها وخرجت إلى الشارع واتجهت نحو الرصيف المقابل. حاولت اللحاق بها فقطعت الشارع في إثرها وكنت مضطرباً ألعن الفتى المراهق فما أبلد خطته إزاء الفتيات الراشدات!.. فلم أبلغ الرصيف.

سمعت صراخاً وضجة وأحسست بلا شيء.. لم أتألم بل على العكس انتابني

خدر في كل أطرافي فكأني لا أملك سوى عينين وحتى سمعي صار يأتيني بالأصوات من مكان قصي جداً. نظرت فرأيت وجهها أقرب الوجوه وكان حزيناً ينتحب ويشهق بالبكاء وصارت تغص بالعبرات التي انهملت على وجهي.

خطر لي أن أسألها عن السيارة التي صدمتني هل هي جديدة تستحق أن تنال شرف تمزيق شاب، أم أن النحس الذي قاسيته لازمني حتى اللحظات الأخيرة من عمري فاختار لي سيارة عتيقة ذات موديل قديم!. عجزت عن تحريك لساني وفكرت أن أمسح دموعها براحة كفي. فلم أقدر. وطالما تمنيت أن يتم الأمر في جلسة هادئة بيننا. فاكتفيت ببلع الدموع التي سقطت فوق فمي وحاولت أن أخبرها بأن دموعها مالحة وكان أجمل لو قدرت على التقاطها من فوق الوجنتين فما كان أسوغ من طعم وجنتيها مع ملوحة عبراتها فلم أقدر وعجزت.

وخيل إلي أنها تتكلم عن الكبرياء!.. وتحسب وقوفي متعمداً أمام السيارة.

كان بودي أن أخبرها عن الأمنيات التي طالما حلمت بها من أجلنا، وعن حبي العظيم وعن تفاهاتي، وكنت واثقاً من غفرانها لتفاهاتي فلم أقدر. فاكتفيت بتأمل وجهها الجميل ثم بمتابعة اليد المخملية التي امتدت بمنديل سخيف لتمسح الدم الذي أحسست طعمه في فمي وظهر يقطر بين شفتي........

تمت

هذا الكتاب

منكرات منحوس أفندي واحد من الكتب العظيمة في تاريخ الأدب العربي، لأنـه منذ صدوره في عام (١٩٦٠) أسس لإسلوب ساخر جديد في كتابة التعليقات والنقد السياسي، ظهر واضحاً بعد صدور الكتاب في معظم الصحف على شكل زوايا ناقدة، وأجَّج قدرة الكلمة على النضال لتزيل مجتمعاً قديماً وتبني مجتمعاً جديداً.

تأثر عدد كبير من الكتاب والصحفيين بالإسلوب الساخر الجديد وتبنوه في كتاباتهم، وليس تحديد أسماء المتأثرين صعباً على القارئ بل سيعرفهم حال انتهائه من قراءة هذا السفر النفيس.

تفرد الكتاب بين كل الكتب العربية والأجنبية بتقديم بطل الرواية منذ تخلقه علقة في رحم أمه داخل فرجها. وهو إبداع لم يسبق له عمل أدبي قبل المنحوس.

ناقش الكتاب وضع المرأة السيئ السائد ورفضه جملة وتفصيلاً، وشجع النساء على تجاوزه، واختيار الحياة الأقسى مع الإرادة الحرة من الحياة الألين بدون حرية.

ثورة الكتاب صادقة من خلال نضال عنيف لم يحسب حساباً لغضب المحافظين..فولد تيارات فكرية جديدة.

كلمة الناشر